

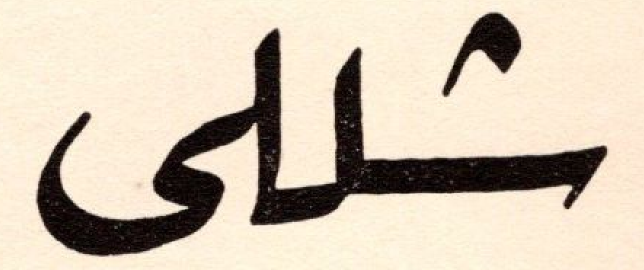
أحمد الصاوى محمد

شللى



دار المعارف بمصر

أحمد الصاوى محمد



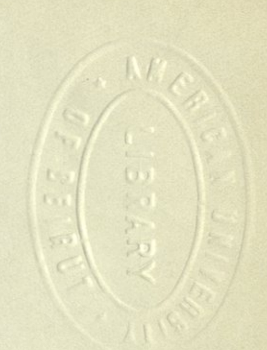
شلى

اقرأ ١٢٨

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

شللي

اقرأ ١٢٨ - أول يوليه ١٩٥٣





— ١ —

كان « الدكتور كيت » ناظر كلية « أيتون » الجديد رجلا قصير القامة ، شديد المراس ، يرى أن التأديب « بالفلقة » درس جميل .. وقد جلد أغلب وزراء البلاد ، وأساقفتها ، وقوادها !

كانت الثورة الفرنسية قد برهنت على أخطار الاندفاع فى الحريات أو الانزلاق فى الاستهتار إذا ما أصابت هذه الآفات الطبقات الحاكمة . ورأت انجلترا ، المحافظة ، أنها بمحاربتها نابليون إنما تحارب الإباحة وتخمدها فى مهدها . فأصرّت على أن تخرج لها مدارسها العامة جيلا عاقلا مصانعاً ، فاتخذت حيطتها لكبح جماح كل نزعة جمهورية محتملة فى شباب أيتون الأرستقراطيين

وكانت العلوم فى أيتون غير إلزامية ، ولذلك أهملت . وكان الرقص إجبارياً ! . . . أما من الناحية الدينية فكان الدكتور كيت يرى الشك جريمة ، ومن العبث النقاش فيه

وكانت تسود علاقات الطلاب بعضهم ببعض عادات تكاد تكون وحشية . فإن الصغار منهم كانوا للكبار عبيداً ! . . وكان كل « عبد » يرتب سرير « سيده » ، ويحمل له من

« الطلمبة » ما يلزمه من الماء كل صباح ، وينظف ملابسه ، ويمسح حذاءه ! . . وكان كل عصيان يعاقب صاحبه بلون من التعذيب يناسبه !

وكان للملاكمة الصدر الأول ، لمكانتها من الدفاع عن النفس . حدث يوماً أن خلف شوط عنيف منها صبياً صريعاً ملقى على الأرض ميتاً . فجاء الدكتور كيت فشاهد الجثة وقال : « هذا يؤسف له ، ولكنى حريص قبل كل شيء على أن يكيل تلميذ « أيتون » لمن يهاجمه الصاع صاعين » ! . .

غير أن بعض النفوس الحساسة ، وقليلا ما كانت ، اشتد عذابها ، وطال ألمها . . ومن هذه النفوس كانت نفس الفتى « پرسى شللى » نجل أحد كبار الملاك الأغنياء فى مقاطعة سوسكس ، وحفيد البارون السير بسيش شللى . فقد أظهر قلقاً لم يؤلف فيمن كان من طبقته ، وأبدى نزعة لا تصدق فى تطبيق « قواعد اللعب »

وكان هذا الفتى جميلا ، أزرق العينين ، أشقر الشعر ثائره ، ناعم البشرة كالطفل . . .

عندما جاء إلى المدرسة لأول مرة رأى فيه قباطنة السنة السادسة : جسما نحيلا ، ووجهاً ملائكياً ، وهيئة أقرب ما تكون إلى الفتيات . فتصوروه حيياً ، لا يحتاج إلى أن يفرضوا

عليه إرادتهم قسراً . . بيد أنهم لم يلبثوا أن اكتشفوا فيه مقاومة جامحة وإرادة لاترضخ . . وكانت عيناه النجلاوان ، الحالمتان فى ساعات الصفاء ، تبرقان تحت تأثير الحماسة أو السخط ببريق وحشى . ويصبح صوته ، الرزين الرخيم عادة ، جهورياً متحشرجاً . . كان متمرداً يصدمهم ويصدهم عنه كل شىء فيه : حبه للكتب ، واحتقاره للعب ، وشعره المرسل فى الهواء ، وقميصه المفتوح على نحره الأنثوى !

حكم شللى ، من أول يوم له فى أيتون ، بأن الطغيان الذى يفرض هذه « العبودية » على الصغار مخالف للكرامة الإنسانية ، فرفض بخشونة أن يخدم « سيداً » ، أو يطيع أحداً ، وصار خارجاً على ذلك القانون !.. فسموه « شللى المجنون » ، وتضافروا على اضطهاده ، وملاحقته فى كل مكان ، يحاصرونه كما يحاصر الصيادون الأيل الوحشى ، فيقف وظهره إلى جدار ، ويصرخ صراخاً متواصلا يصم الآذان ، وهم يرجمونه بكرات مبللة بالوحل ، ويصيح صائحهم : « شللى » . . فيرد عليه صوت آخر صادعاً : « شللى . . شللى . . » ! . . وتتجاوب بالصدى الجدران !

ويتزاحم عليه « السادة » و « العبيد » ، هذا يجذب ملابسه ، وذلك يقرصه ، وثالث يخطف الكتاب الذى يضمه إلى إبطه ويلقيه فى الوحل . وتتجه الأصابع كلها مشيرة إليه ، ويتجدد

الصياح ، وتبلغ به الأزمة مداها ، فتنفجر منه سورة حنق جنونى : تلمع عيناه ، وتشحب وجنتاه ، وينتفض بدنه كله ، ويهتز اهتزازاً . فإذا انصرفوا عنه عاد إلى كتبه يمسح عنها الطين ، وراح بين العشب والماء يطالع أحد كتبه الحبيبة : مؤلفات : ديدروه ، وفولتير ، والفيلسوف المادى الملحد دولباك . . فقد كان معجباً بهؤلاء الفرنسيين الذين يمقتهم أساتذته ، وكانت آراؤهم ملخصة بين يديه فى مجلد جودوين Godwin : « العدل السياسى » ، وهو كتابه المختار ، الذى يبسط له الأمور ويبسّطها . ولو أن كل الناس فى رأيه قرأوه لعاشت الدنيا فى هناء . . لو أنهم أصغوا إلى صوت العقل ، صوت جودوين ، لكان عمل ساعتين فى اليوم يكفى لغذائهم ، ولحلّ الحب الحر محل عقود الزواج الحمقاء . .

طوى شللى يوماً كتابه وأخذ يفكر فى شقاء البشر . وكانت مبانى الكلية الدانية ، من طراز القرون الوسطى ، يتصاعد منها لغط أصوات الغباء ، نحو هذه البرية الفيحاء ، المزدهرة بالغابات والغدران . ولم يكن حوله ، فى هذا الخلاء الهادئ ، وجوه ناضرة ضاحكة مستبشرة . . فانهمرت من عينى الصبى الدموع . وضم يديه وقال بصوت مرتفع : « أقسم أن أكون عاقلا ، وعادلا ، وحراً ، ما استطعت إلى ذلك كله سبيلا . .

أقسم ألا أتواطأ أبداً ، ولا بمجرد الصمت ، مع أهل الأنانية والجبروت . . أقسم أن أكرس حياتى لعبادة الجمال . . . »

— ٢ —

فى خلال العطلة المدرسية يصبح هذا الجامح الآبق ولياً للعهد . وكان أبوه المستر تيموثى شللى يملك قصر « فيلد بلاس » فى سوسكس ، وهو دار بيضاء ، متينة البناء ، تحيط بها حديقة وغابات شاسعة . .

هناك وجد شللى أخواته الأربع ، وكلهن فاتنة ، وأخاً صغيراً عمره ثلاث سنوات ، علمه كيف يصيح : « الشيطان » ، نكاية بالأتقياء ! . ووجد بنت عمه « هارييت » الحسناء ، التى كانت تشبهه . . .

أما جده ، السير بسيس شللى ، فكان يسكن القرية . وهو « چنتلمان » من المدرسة الإنجليزية القديمة ، يباهى بالغنى ، وكان قد أنفق ثمانين ألفاً من الجنيهات على تشييد قصر فخم ، لكنه لم يسكنه لما تتكلفه سكناه من حاشية ! . وعاش فى كوخ مع خادم واحد ، يلبس كفلاح ، ويقضى يومه فى حان القرية متحدثاً فى السياسة مع المسافرين . وشقيت بالعيش معه كريمتاه فهربتا ، وكان ذلك عنده مبرراً لحرمانهما من « الدوطة » ! . .

وكانت هوايته الوحيدة أن يزيد فى ضخامة ثروته التى كانت مع ذلك هائلة ، وأن ينقلها إلى آل شللى يتوارثونها خلفاً عن سلف . فوقف الجانب الأكبر منها على حفيده « برسى » ، وحرم بقية إخوته وأخواته حرماناً تاماً .

وكان تيموثى شللى ، عضو البرلمان ، مثل والده ، طويل القامة ، قوى العضل ، أشقر الشعر ، جميلا ، وجيهاً . قلبه خير من قلب السير بسيش ، ولكن دونه مضاء عزيمة . يتمسك باحترام الدين ، ولكنه يتظاهر بحرية الرأى السياسى والدينى . .

أما زوجته ، مسز شللى ، أجمل فتاة فى إقليم « سوسكس » ، فكانت تحب من الرجل أن يكون فارساً مناضلا ، ولذلك نظرت بعين السخرية إلى ولدها الكبير برسى وهو يقصد الغاب حاملا تحت إبطه بدل البندقية كتاباً ! . .

بيد أن شللى كان فى أعين أخواته رجلا أعلى (سوبرمان) ، فلا يكاد يصل من أيتون حتى يزدحم البيت بالضيوف الغريبى الشكل ، وتغص الحديقة بالأشباح ، ويتصاعد من جوانبها الهمس

وكان شللى يختار لصحبته ، من بين أخواته الصغيرات العزيزات ، أقربهن إليه سناً وفكراً : « إليزابيث » . . فهى وبنت عمه الفاتنة « هارييت جروف » كانتا أعز مريداته

كان هؤلاء الأحداث الثلاثة يربطهم الشغف بالبحث عن

الحقيقة . وكان شللى يسوق تلميذتيه الجميلتين نحو المقبرة ، حيث يرى لأرواح الموتى الهائمة حولهم تأثيراً شعرياً ! . . ويعلق بفصاحة على ما يتراءى له من شؤون الأرض والسماء ! . . فمن جانب الرذيلة : الحكام الطغاة ، والقساوسة المراءون ، والأغنياء الشرهون . . ومن جانب الفضيلة : الفلاسفة الحكماء ، والمساكين ، والأشقياء . . وقاموسه فى هذا كتاب جودوين : « العدل السياسى »

غير أنه كثيراً ما كان يتحدث إلى فتاتيه فى الحب :

— إن شرائع البشر تزعم فرض سننها على عواطفنا الطبيعية ! فيا للسخف ! فعند ما تلحظ العيون مخلوقاً جذاباً مشتعل الفؤاد ، كيف يكون فى مقدوره أن يتجنب الحب ؟ ! . . إن الحب يذبل فى جو الضغط والإكراه . وجوهره هو الحرية . وهو لا يتفق مع الطاعة ، أو الغيرة ، أو الخوف . فلا مندوحة له عن الثقة ، والاستسلام التام . وليس الزواج إلا سجناً . . .

والتشكك فى الزواج دعابة لا تتذوقها العذارى ، وقلما تطيب لهن . وعلى ذلك ترد هارييت :

— القيود ؟ . . إنها بلا شك قيود . . ولكن ما الضرر منها إذا كانت خفيفة . . لذيذة ؟

— إذا كانت خفيفة فلا معنى لها . . أتوضع القيود والأصفاد

فى يدى سجين متطوع ؟ . .

— ولكن الدين ؟ . .

— ما ذنب خلائق خلقها الله ضعيفة ، ثم يعاقبها ؟ كيف ينتقم من العاثرين المساكين الذين يتركهم يتخبطون فى ضعفهم؟!

قصة يؤلفها هؤلاء الثلاثة . . إليزابيث تؤيد أخاها . . وهارييت تعارض، ولكن أنى لها أن تقاوم « نصف الإله » هذا، ذا العينين البراقتين ، والقميص المفتوح على نحر شفاف ، والشعر المتطاير فى الهواء وكأنه خيوط حريرية ذهبية ؟!

ويرخى الليل سدوله . . فتغادر الأخت المتواطئة الحبيبين الصادقين منفردين فى الظلام . . .

وفى طريق عودتهما معاً إلى المنزل ، فى كآبة الخلاء ساعة المساء ، يتذكر شللى أنه عائد قريباً إلى أروقة أيتون المظلمة، فيكتئب ، ويحزن . . ولكنه لا يلبث أن يحس تحت يده بجسد بنت عمه الدافىء يخفق ويرتجف ، فيشعر بنفسه ممتلئاً شجاعة ، يواجه بها كالأبطال حياة كفاح ونضال ، يؤدى فيها رسالة

— ٣ —

فى أكتوبر ١٨١٠ أخذ المستر تيموثى شللى ولده إلى جامعة أكسفورد وهو مبتهج بهذه الرحلة التى تذكره بشبابه ، وقصد إلى

مكتبة « سلاتر » وفتح فيها للطالب الجديد اعتماداً غير محدود لشراء ما يلزمه من كتب وورق . . « إن ولدى هذا ، يا مستر سلاتر ، من أهل الأدب . وقد سبق له أن وضع قصة . فإذا أراد حتى النشر ، فدعه يرضى هوايته . . . »

واغتبط شللى بالحياة الجامعية : أن تكون له حجرة خاصة به ، وأن يكون حراً فى حضور الدروس واختيار ما يروقه من الدراسات ، وأن يقرأ ويكتب ما يشاء ، أو يذهب ليتنزه كما يطيب له . . حياة الرهبنة والزهد تمتزج بحرية فكر الفيلسوف

وفى المساء ، عند العشاء ، جلس إلى جانبه طالب جديد مثله ، قدّم إليه نفسه باسم « جفرسون هُجْ Hogg »، ثم تحدثا عن مطالعاتهما . . فقال شللى :

– إن أفضل أدب شعرىّ فى وقتنا هذا هو الأدب الألمانى

فاعترض هج ، مبتسما ، بأن الألمان ينقصهم الطبع . . فهم مسرفون فى الخيال . . ولذلك فهو يؤثر الأدب الإيطالى . .

فاندفع شللى محتداً فى نقاش . . .

ودعا هج صاحبه إلى غرفته لإتمام المناقشة ، فقبل شللى الدعوة متحمساً ، ولكنه أضاع فى السلم حبل أفكاره ! . .

وبينا كان هج يشعل الشموع قال شللى بهدوء إنه لا يفهم سبباً فى استمرار هذا الحوار ، ما دام يجهل الأدبين الإيطالى والألمانى

على السواء !.. وخلصا من الأدب إلى الكيمياء ، وبدأ شاللى خطاباً فى مستحدث مكتشفات الطبيعة والكيمياء . .

وغدا الشابان لا يفترقان . فكانا يتنزهان كل صباح على الأقدام ، وشللى يعبث ويلعب كالطفل : يتسلق الربى ، ويقفز الحفر . . فإذا ما وجدا جدول ماء أو غديراً أجرى شللى فيه مراكب من ورق ، وتبعها حتى تجنح وتغرق . . ويظل هج ينتظره واقفاً ضائقاً صدره . . وبعد النزهة يصعدان إلى غرفة شللى وقد أضناه ما بذله من الجهد ، فيتراخى ، ويستلقى على السجادة أمام المصطلى ، منطوياً على نفسه كالقط ، وينام هكذا ، من الساعة السادسة إلى العاشرة . ثم ينهض فجأة ، ويدعك عينيه بعنف شديد ، ويتخلل بأصابعه شعره الطويل ، ويبدأ من فوره يجادل فى موضوع من موضوعات « ما وراء الطبيعة » ، أو يروى شعراً . أو يتحدث إلى هج عن بنت عمه هارييت ، التى يكتب إليها رسائل طويلة تمتزج فيها نزعات الحب بفلسفة الإلحاد . أو يصف لصاحبه أخته إليزابيث العدوة اللدود للأحكام المبتسرة والتقاليد العتيقة ، أو يقرأ بصوت مرتفع خطاب أبيه الأخير ، ضاحكا مقهقهاً . ثم يتناول أحد كتبه الأثيرة من مؤلفات الفلاسفة : لوك ، أو هيوم ، أو فولتير ، ويعلق عليه بحرارة

— ٤ —

قبل عيد الميلاد بأيام تلقى المستر تيموثى شللى فى بريده خطاباً من ناشر كتب فى لندن ، يدعى مستر ستوكديل ، يصف له فيه الإنتاج الخارق للعادة الذى يريد الشاب برسى شللى أن يطبعه . وقال الناشر إن من بين المخطوطات العديدة قصة St. Irvyne ، وهى ملأى بأشد الأفكار الهدامة . . وإنه قلق لأنه يسلك طريقاً ملتوية خطرة . ويرى من واجبه أن ينذر رب العائلة ، وأن يلفت نظره بخاصة إلى « جفرسون هج » رفيق السوء الذى يلازم مستر شللى الشاب

فكتب المستر تيموثى إلى الناشر ينذره بأنه لن يدفع له بنساً واحداً من تكاليف الطبع

وفى عطلة عيد الميلاد كان لقاء شللى بأبيه مؤلماً ، وحاول شللى أن « ينير » والده فى شؤون الدين ، وراح يبرر « عدم الاعتقاد » . . ولكن أباه فرض عليه الصمت بتلك الحجة الأبدية : « إنى أؤمن لأننى أؤمن »

وحذرت أمه بناتها من مخالطة شقيقهن ، لئلا يفسد عليهن إيمانهن . وساد البيت حزن شديد لهذا الحادث ، بعد ما كان يفيض عادة فى مثل هذه الإجازة بالبهجة !

وظلت إليزابيث وحدها مخلصة سراً لشللى ، حتى بنت عمها « هارييت » لم تعد تشاركها إعجابها بأخيها ، فإن الرسائل التى تلقتها من أكسفورد ضايقتها وأقلقتها . وبرمت بما اقتبسه شللى من كتاب جودوين فى الإلحاد ، فلم تزدد إلا نفوراً

وقلما يتذوق النساء الجميلات الأفكار المتطرفة !. إن الجمال ، وهو الشكل الطبيعى للنظام ، هو فى جوهره محافظ . وهو يدعم الدين المقرر . وإذا كفرت المرأة بالله فكأنها أشد كفراً بالبيت والحياة والحب ، وكأنها تنكر مملكتها وتنفض يدها من وظيفتها وسلطانها

وقد أظهرت هارييت أهلها على رسائل ابن عمها المتشككة ، فوجدوها مبادىء مرذولة ، وحكموا بما ينتظر الفتى شللى من مستقبل مظلم . فهل كان يسعها أن تتزوج من مهوّس ينفر من هوسه الناس جميعاً ؟ . . إنها تحب الظهور ، وتحب الأناقة والحفلات الراقصة . فكيف تكون حياتها مع هذا المخلوق الشاذ ، حتى الزواج ليس له عنده حرمة ولا ميزان ! فما بال حرمة الدين ؟

وقبل وصول برسى وقعت بين الفتاتين مشاحنات عنيفة ، دافعت فيها إليزابيث عن أخيها :

— كيف تضعين ، يا هارييت ، ترضية الكرامة المزعومة فى كفة ، وهناء العيش مدى الحياة مع خير الرجال فى أخرى ؟

— إنك تجعلين من أخيك مخلوقاً فائقاً ، ولكن ما يدرينى

أنه كذلك حقاً ؟ ولنسلم جدلا بأنه عبقرىّ ، فأى حق لى إذن فى أن أبدأ معه حياة تنتهى بخيبة الأمل عند ما يكتشف مبلغ قصورى عنه ، وبعدى عن المخلوقة العليا التى كوّنها فى مخيلته عنى ؟ ! إننى لست إلا فتاة عادية متواضعة ، أشبه ما أكون بسواى من الفتيات . لسوف يدهش ويقنط عند ما لا يجد فىّ المثل الأعلى الذى رسمه لى . .

ولما جاء شللى بسطت له إليزابيث الموقف ، فهرول إلى هارييت ، فوجدها ، كما وصفتها أخته ، جافية نائية . لم تسأله تبريراً لموقفه . وإنما سألته أن يتركها لحالها !

قال شللى :

ـ أفلا أستطيع البوح بما أعتقد . . ولمَ تنزل بى آرائى الدينية عن مكانتى عندك أخا ، أو صديقاً ، أو حبيباً ؟

ـ لك أن تظن ما تشاء ، فلا شأن لى بظنونك . ولكن لا تسألنى أن أربط مصيرى بمصيرك ! . .

وخرج شللى مجنوناً حزناً . وعاد أدراجه فى تثاقل إلى البيت . واجتاز الغابات المثلجة الجرداء ، غير شاعر بما يهب عليه من جليد ، وقضى هزيعاً من الليل فى مقبرة البلد التى كانت مسرحاً لأحلام الحب الأولى . . ودخل الدار فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، وآوى إلى فراشه بعد ما وضع إلى جانبه طبنجة عامرة وكثيراً من

أنواع السموم . . لكنه تذكر ما يصيب شقيقته إليزابيث من الحزن عند ما ترى جثته ، فعدل عن الانتحار

وفى اليوم التالى كتب إلى هج يقسم ألا يعفو عن التعصب الذى يهدم المجتمع ، ويدعم الأحكام المبتسرة التى تقطع أعز الصلات وأحناها. ويشكو له ما أصابه منها ، وأنها لم تعد له ، بل صارت تمقته لتشككه .. ويحدثه عن الحب ، وعن فكرة الانتحار !

وقضى الخمسة عشر يوماً الباقية من إجازته فى جحيم ، بين أب وأم ساخطين ، وأخوات خائفات . . ورفضت هارييت أن تجىء إلى « فيلد بلاس » وهو فيه !

وحاول شللى أن يهدىء من ألمه برؤية هناء غيره ، ففكر فى مشروع خِطبة أخته إليزابيث لصديقه هج . . فأرسل إليه أشعاراً نظمتها تلميذته هذه فى هجو التعصب ، وقدم لأخته ما تلقاه من أشعار هج ، التى وصف فيها ما أصاب شللى نفسه فى محنته ، فشبهه بشجرة البلوط الفتية ، وشبه « هارييت جروف » بالسوسة التى تنخر الشجرة بعد ما تتسلقها

وكان بوده لو تمكن من دعوة هج إلى قصر « فيلد بلاس » حتى تستطيع إليزابيث أن تراه ، وتحكم بنفسها على صفاته الباهرة . . بيد أن مستر « تيموثى » كان يذكر تحذيرات الناشر منه لأنه رفيق سوء ، فحال دون الدعوة . . .

— ٥ —

بعد نحو شهر من هذه العطلة الحزينة ، بينا كان « سلاتر وموندای » ، صاحبا مكتبة أكسفورد اللذان أوصاهما المستر تيموثى شللى بنزعات ولده الأدبية خيراً ، يتحادثان ، إذ رأيا الفتى شللى يندفع إلى داخل حانوتهما ، وهو يحمل حزمة ضخمة من كتيب صغير . ورجاهما عرضها فى الواجهة البلورية ، وبيع النسخة منها بستة بنسات . وتولى بنفسه تنظيمها بحيث تلفت أنظار المارة . . ونظر صاحبا المكتبة إلى هذا الاهتمام منه بعين العطف ، الذى يظهره عادة تجار المدن الجامعية للطلاب الممتلئة جيوبهم بالنقود . ولم يعرفا أية مواد مفرقعة عرضها شللى فى مكتبتهما . . كانت رسالة « ضرورة الإلحاد » ، وقد عزاها إلى اسم منتحل : « چرمياه ستكلى »

ولم تمض عشرون دقيقة على ذلك حتى مر بالمكتبة الأب « جون ووكر » المعيد بإحدى الكليات ، فوقف عند واجهتها مندهشاً : « ضرورة الإلحاد » ! . . ثم دخل المكتبة ، وصاح :

— مستر موندى ! . . مستر سلاتر ! . . ما معنى هذا ؟

— حقاً ، يا سيدى ، إنا لا ندرى شيئاً عن ذلك . . ولم نفحص هذا الكتيب

– ولكن « ضرورة الإلحاد » ! . . والكتاب يعرف من عنوانه ! . . تفضلا بإخفائه حالا ، ارفعا كل النسخ التى لديكما منه واحرقاها فى النار ! . .

ولم يكن للأب ووكر أية سلطة شرعية لإصدار مثل هذه الأوامر . بيد أن صاحبى المكتبة يعلمان أنه تكفى شكواه منهما لتحرّم الجامعة على الطلاب دخول مكتبهما ، فأرسلا مستخدماً من المكتبة ليرجو المستر شللى الشاب أن يحضر لأمر يهمه :

– إننا آسفان يا مستر شللى لما حدث ، ومن مصلحتك أن ...

فأكد لصاحبى المكتبة المضطربين حقه فى التفكير وإبداء الرأى . . ثم قال :

– لقد فعلت ما هو أفضل من بسط شباكى أمام طيور أكسفورد المنتوفة الريش ، العمياء . . وبعثت بنسخة من « ضرورة الإلحاد » إلى كل الأساقفة الإنجليز ، ومدير الجامعة ، وأساتذة الكليات ، مع تحيات « جرمياه ستكلى » ، بخط يدى لا يد أحد سواى ! . .

وبعد ذلك ببضعة أيام جاء ساع يبحث عن شللى فى غرفة هج ، فأبلغه تحيات العميد ، ورجاه الذهاب إليه من فوره . فذهب إلى قاعة مجلس الجامعة ، فإذا المجلس مجتمع بكامل هيئته من فريق صغير من الأساتذة المحافظين الشديدى التمسك

بالدين والتقاليد . وكانوا كلهم تقريباً يمقتونه لشعره الطائر الطويل ، وخروجه فى الزى ، وميله الوضيع للعلوم التجريبية ! . . .

أشار العميد إلى نسخة من « ضرورة الإلحاد » . . وسأله أهو المؤلف . ولما كان يتكلم بجفاء وازدراء ، فإن شللى لم يرد عليه !

– هل أنت مؤلف هذه النشرة ؟ . . « نعم » أم « لا » ؟

– إذا أمكنكم التدليل على أننى كاتبها فهاتوا برهانكم . وليس عدلا ولا شرعاً أن تسألونى بهذه الطريقة . مثل هذه التصرفات أولى بمحاكم التفتيش منها برجال أحرار فى بلاد حرة

– أتنكر أن هذا من وضعك ؟

– أرفض الإجابة

– إذن فأنت مطرود ، وعليك أن تغادر الكلية غداً صباحاً

وسلم إليه أحد الأعضاء قرار الطرد . . فهرع شللى إلى غرفة هج . وارتمى على الديوان وهو يرتجف من الغيظ ، ويكرر : « مطرود ! . . مطرود ! . . » ، وأسنانه تصطك ...

وكان العقاب فظيعاً ، وكان معناه : قطع دراساته ، واستحالة التحاقه بأية جامعة أخرى ، وحرمانه من الحياة الطيبة الوادعة التى يحبها ويستمتع بها ، وإنزال غضب أبيه وسخطه عليه !

فاستنكر هج هذا التصرف من أولياء الأمر . واندفع فكتب لمجلس الجامعة مذكرة يرجو فيها ألا يكون الحكم نهائياً . .

وكلف خادماً بحمل هذه الرسالة إلى المحكمة التى كانت ما تزال مجتمعة . فعاد على الأثر يبلغ هج أن العميد يدعوه إلى المجلس وهناك سأله العميد :

— هل كتبت هذه ؟ . .

وأشار إلى الخطاب . فاعترف به هج . . فسأله العميد :

— وهذه ؟ . .

وأشار إلى نشرة الإلحاد . فراح هج يدلل ببراعة المحامى على تفاهة الأمر ، وما فى الحكم على شللى من ظلم . . فقال العميد ثائراً :

— كفى ! . . فأنت مطرود أيضاً ! . .

— ٦ —

حملت عربة أكسفورد المبعدين وحقائبهما . واقترض شللى عشرين جنيهاً من صاحبى المكتبة ليعيش بها فى لندن ، ريثما يجيئه نبأ من أبيه . . ونزلا فى غرفة فى « بولاند ستريت » جدرانها مغطاة بورق مزخرف بعناقيد عنب خضراء وزرقاء بدت لهما أجمل ما فى العالم ! . .

وحدّث ، ولا حرج ، عما أصاب المستر تيموثى شللى لما علم بما حدث فى أكسفورد ، فقد كانت تهمة الزندقة شنيعة ، وكان العقاب رادعاً . فكتب إلى والد هج يشكو من هذه

المحنة التى وقعت لولديهما فى أكسفورد . . ويرجوه أن يستدعى « فتاه » لساعته . ويقول : « أما أنا فسوف أوصى ابنى بقراءة كتاب پالى Paley ، فى علم اللاهوت الطبيعى ، الذى يناسب حالته ، ويشفيه من فتنته . . بل سأقرأه بنفسى معه »

ثم دبج لفتاه خطاباً قوياً قاسياً يأمره فيه أن يعود حالا إلى « فيلد بلاس » ويمتنع عن كل اتصال بالمستر هج ، وأن يضع نفسه تحت تصرف السادة الذين سيختارهم له ، وأن يطيعهم... وإلا فإنه ينبذه ويتخلى عنه للشقاء الذى يحيق عدلا بمن تسوّل له نفسه مثل هذه الآراء !.. وجاء رد الولد قصيراً بالرفض التام...

كان الوالد يريد بكل قواه أن يتجنب القطيعة التى تجعل وسائل التأديب عسيرة . أما وقد رفضت «شروطه» فقد سقط فى يده !

وسافر إلى لندن ، ودعا الشابين المتمردين لمقابلته بفندق ميلر المشهور بجودة الخمر . وقال لنفسه ، فى انتظار حضورهما : « الحق أنه لا بد من معاملة الأولاد باللين والبشر ، والعقل الناضج المستنير كفيل بالفوز دون عناء على فيلسوف فى الثامنة عشرة من عمره ، وبذلك يمكن تجنب الكثير من الويلات . . وبعد ، أفليس شللى هو وارث الضيعة ، وإليه يعود اسم شللى . . فلا مندوحة عن رده إلى جادة الصواب »

وأعد الرجل الطيب حججه المستقاة من كتاب « بالى »

الدينى لتسفيه الزندقة، وفرك يديه بارتياح

وفى تلك الأثناء كان الفتيان قادمين على الأقدام من « بولاند ستريت » ، يطالعان بصوت عال ، فى الشارع ، وهما يتضاحكان : « القاموس الفلسفى » لفولتير . . وكان شللى يتلذذ بسخرية الفيلسوف الفرنسى من الشعب اليهودى وقسوة « يهوه » إله بنى إسرائيل . . .

ووجدا المستر تيموثى شللى فى انتظارهما مع « مستر جراهام » وكيله فى لندن وصديقه . وأحسن المستر تيموثى وفادة هج ، ووجه إلى ولده خطاباً طويلا حامياً غير مفهوم ، مصحوباً بالإشارات والحركات التمثيلية ، التى بدت للشابين سخيفة . فانحنى شللى على صديقه هج وسأله : « والآن ما رأيك فى أبى ؟ ». فقال له هج همساً: « هذا ليس بأبيك . . هذا هو « يهوه » إله بنى إسرائيل نفسه ! » . فانفجر شللى ضاحكاً مقهقهاً حتى استلقى . فاستغرب أبوه ، وسأله مستنكفا :

ــ ماذا أصابك يا برسى ؟ هل أنت مريض ؟ هل جننت ؟

وكان العشاء فاخراً طاب به الحديث . وفى ختامه بعث المستر تيموثى شللى بولده ليوصى بإعداد عربة السفر ، وراح يحاول التأثير فى هج ، ويتخذ منه نصيراً :

ــ إنك يا سيدى تختلف تماماً عما كنت أتوقع . . فأنت

سيد ظريف ، متواضع عاقل ، فلماذا تشير علىّ نحو ولدى المسكين ؟ فهو مهوّس . . أليس كذلك ؟

– لو أنه كان قد تزوج بنت عمه لأصبح شخصاً آخر ، فهو بحاجة إلى شخص يعنى به . بحاجة إلى زوجة كريمة

– ولكن كيف ؟ هذا مستحيل ! . . لو أننى عرضت الزواج على برسى لرفض حتما . . فأنا أعرفه . . .

– إنه يرفض إذا ما أصدرت إليه أمراً بالزواج . ولكن إذا ربطت حباله بفتاة تعتقد أنها تكون قرينة طيبة له ، دون ذكر شىء عن الزواج ، فلعله يتعلق بها ، وإذا لم توفق الأولى فيمكن تجربة سواها ! . . .

فأطرى المستر جراهام هذه الخطة . . وأخذ الرجلان يستعرضان أسماء الفتيات . . .

وعاد شللى . فأمر أبوه بزجاجة أخرى من أعتق نبيذ إسبانى ، وبدأ يثنى على ذات نفسه ، ولما أحس بأن النبيذ قد فعل فعله فى مدعويه دخل فى الموضوع الأساسى لرحلته ، وجادل ولده فى الدين

ولم ينكر أحد من الحاضرين وجود الله . . ومع ذلك رفض شللى أن يتبع أباه ، ورفض أبوه أن يعطيه بنساً واحداً . وعلى هذا افترقوا ، وفاز هج وحده بإعجاب والد شللى ، فقد وجده إنساناً أرق من ولده ، وليس مثله كبرياء وعناداً ، وأنه يفهم الحياة .

ورأى فكرته عن زواج شللى معقولة . وكذلك رأى هج أن والد صديقه سليم الطوية ، كريم الضيافة

أما والد هج فقد نصح ولده أن يتابع ممارسة القانون ، ووجد له محلا فى مكتب محام بمدينة يورك . . فترك هج صديقه شللى فى غرفة « بولاند ستريت » ، كما لو كان ثعلباً حائراً بين عناقيد العنب الخضراء والزرقاء . . .

— ٧ —

أما وقد بقى شللى وحيداً فى لندن ، بلا صديق ، ولا عمل ، ولا مال ، فقد سقط فى مهاوى اليأس والقنوط . وكان يقضى أيامه فى غرفته ، ينظم الأشعار الحزينة ، ويكتب الرسائل إلى هج . ولا يكاد ينصرف إلى التأمل حتى تتمثل فى ذهنه صورة بنت عمه الجميلة ، اللاهية . فيتعذب ، ويحاول جهده أن يخلص قلبه من هذه الرؤى الأليمة ، مردداً « أنه لم يكن يحب جسد تلك المخلوقة ، بل روحها ، التى تغيرت فلم تعد هى ، وعلى ذلك لم يعد لها وجود . . »

غير أنه لم يجد فى هذا التدليل المنطقى عزاء . وزادت مسألةالنقود تحرجاً. فلم يبدأبوه حساً ،ولا خبراً . والتقى به ذات يوم ، بطريق الصدفة ، فى شوارع لندن ، فسأله بأدب عن صحته . .

فكان كل ما تلقاه من الرد نظرة سوداء ، كالغيوم ذات الرعود!

ولكن شقيقاته كن يرسلن إليه مصروف أيديهن ، وكان ذلك كل ما يعيش عليه ، وكانت إليزابيث فى قصر فيلد بلاس تحت الحراسة ، أما شقيقتاه الصغيرتان فكانتا فى معهد داخلى اسمه « مجمع الشابات » ، ولم تلبث طالباته أن تعرفن بالعينين الساحرتين ، والقميص المفتوح ، والشعر الثائر الطائر المجنون : تلك المميزات التى خص الله بها أخا هيلين شللى !

وكان يجىء وجيوبه محشوة بالبسكويت والزبيب ، ويبدأ يتحدث فى الأبديات ، أمام حلقة من الصبايا المفتونات . . . وقد عنى خاصة بأن « ينير » أجملهن ! . . وكان أشد ما يكون إعجاباً بزميلة أختيه وأعز صديقة لهما ، « هارييت وستبروك » (هارييت أيضاً ! !) ، وكانت فى السادسة عشرة ، ذات شعر أشقر أحمر ، وذات بشرة وردية ناصعة البياض ، صغيرة القد ، نحيلة الغصن ، رائعة الحسن ، تفيض مرحاً ذكياً ، ونضارة شائقة ! . وقد زاد نفعها عند ما أصرت مسز فننج الناظرة (بناء على أوامر تلقتها من المستر تيموثى) على الحد من زيارات شللى لمجمع الشابات . وكانت هارييت تخرج كل يوم صباحاً ومساء ، ذاهبة من البيت إلى المعهد ، ومن المعهد إلى البيت . فعهد إليها بأن تحمل إليه النقود ، والفطائر ، والحلوى . .

وهكذا أصبح ناسك صومعة « بولاند ستريت » خير صديق لها

وكان والد هارييت وستبروك فيما مضى خماراً ، فأراد أن تتربى بنته تربية بنات الأشراف . ولما ماتت أمها تولت أمرها أختها الكبرى إليزا ، العذراء الناضجة

ولم يكن غريباً أن تهتم أسرة وستبروك بهذا الفتى النبيل ، الوريث لثروة طائلة ، الجميل كالآلهة ، الذى يعيش فى غرفة صغيرة على الخبز والتين المجفف ، تحمل إليه الآنسة وستبروك الصغيرة « مصروف » شقيقتيه ليحول دون موته جوعاً . . .

ورغبت إليزا أن تراه ، فجاءت به هارييت إلى البيت على أثر إحدى جولاتهما . وكانت إليزا بادية العظام ، فى وجهها الأبيض الكالح آثار جروح وندوب ، وعيناها منطفئتان ، تنظران ولا تنطقان عن ذكاء ، وشعرها كتلة سوداء كالربوة تشرف على هذا كله. على أن شللى لم يلبث أن نسى نفوره البادى من قبح هذه العانس عند ما رآها تبدى له ودها . فهى لم تعارض فى زيارات أختها لغرفة « بولاند ستريت » ، بل شملتها برعايتها ، ودعت شللى مرات عديدة للعشاء معهما فى غياب المستر وستبروك . واكتسبت قلبه حين سألته بدورها أن تستنير وتتثقف ، مع هارييت ، بمطالعة « القاموس الفلسفى » تحت إشرافه ! . .

وسرعان ما لوحظت فى « مجمع الشابات » نزهات هارييت

مع شللى . فنصحتها إحدى المعلمات بالحذر منه ، فربما كانت أخلاقه من نوع أفكاره الكافرة . ثم ضُبطت معها رسالة منه ممتلئة بأخطر الحجج والآراء . فهددت بالفصل لمكاتبتها « زنديقاً » !. ولوت بنات الأشراف أكتافهن لبنت الخمار

وبينا كان شللى ، ذات مساء ، يقرأ إلى جانب المدفأة ، وحيداً ، جاءه نبأ من إليزا بأن هاربيت مريضة ، وترجوه أن يجىء ليؤنسها . فذهب ، فوجدها فى فراشها ، شديدة الشحوب ، ولكنها أجمل منها فى أى وقت مضى ، بغدائر شعرها الكستنائى الذهبى ، المرسلة من حولها . . وجاء المستر وستبروك لتحيته ، فشعر شللى بالحرج حين رآه ، وبدت له غير لائقة هذه الزيارة الليلية فى خدر فتاة . . بيد أن المستر وستبروك كان ظريفاً ، فحياه ثم قال : « آسف لعدم استطاعتى البقاء معك . لأن عندى أصدقاء فى الطابق الأرضى . فتفضل إذا شئت بالانضمام إلينا فيما بعد » . . فشكره شللى . . وتمنع ، خوفاً من أصحابه !

وجلس إلى جانب فراش هاربيت ، وإليزا بقربهما . . وكانت فى تلك الليلة ذلقة فصيحة ، فتحدثت طويلا عن الحب . . وما لبثت هاربيت أن اشتكت من صداع شديد لا تحتمل معه دوىّ الكلام . . فاستأذنتهما إليزا ونزلت إلى حجرتها . . وتركت الشيئين الصغيرين وحدهما . . وبقى شللى إلى ما بعد منتصف الليل . .

لقد صار منفى شللى أخف وطأة منذ أصبح يستقبل فيه الفتيات ، و « ينير » عقولهن . ومع ذلك كان يشكو بعده عن أخته إليزابيث التى لم تعد ترد على رسائله . . أتكون تحت الحراسة ؟ . . ماذا لو أنه زار فيلد بلاس ذات مساء ، وقابل بالصمت لعنات أبيه ؟ . .

وجاءه الفرج بمجىء خاله « الكابتن بيلفولد »،وكان هذا الكابتن البحرى شيخاً شهماً ، تولى بارجة تحت قيادة نلسون فى ترافلغار . . وكان يؤثر ألف مرة هوس ابن أخته ، الفيلسوف الشاعر ، على زوج أخته المستر تيموثى المتصلب . . وليس يعنيه من پرسى شللى تشككه أو إيمانه . . فدعاه إلى ضيعته فى « ككفيلد » على عشرة أميال من « فيلد بلاس » ، وتطوع شللى بأن « ينير » مضيفه، فأظهر الكابتن أنه تلميذ نجيب ، بحيث أدهش ، بعد أيام ثمانية ، قسيس القرية وطبيبها ، بحججه المنطقية النارية ! . .

وتعرف شللى بمعلمة الناحية « مس هتشنر » ، وهى فتاة جميلة ، ذات وجه رومانى ، فى نحو الثلاثين ، لها نزعة جمهورية ، مشهورة فى القرية بأنها خيالية ، ومتغطرسة . وكانت تشكو من أن أحداً لا يفهمها . وأعجب شللى بنبالة وجهها ،لكنه امتعض إذ رآها تعتقد بالله وحده ، مع إنكار الوحى والنظم الدينية ! . .

فاقترح عليها أن يجادلها « بالمراسلة » لينقذها من ضلالها !.. فقبلت

وفى خلال ذلك كان الكابتن بيلفولد قد حمل حملة صادقة على زوج أخته المستر تيموثى شللى ، واستعان عليه بدوق نورفولك زعيم حزب الأحرار السياسى . . فعاد شللى إلى فيلد بلاس وقد منح مئتى جنيه سنوياً ، بلا شرط ولا قيد

ولقى أخته إليزابيث . غير أنه صعق لما أصابها من تغير ، فقد صارت مرحة طائشة عابثة إلى حد لا يصدق . لقد عرفها من قبل متحمسة ولكن فى وقار وكرامة . أما الآن فقد انصرفت عن الفكر والرأى والجدل ، واندفعت فى تيار الملاهى الخطرة ، والحفلات الراقصة ، والأحاديث التافهة . . فحاول أن يتلو عليها كما كان يفعل من قبل رسائل هج . . فصاحت :

– أف لك ولصديقك السخيف ! . . فكل الناس الذين أعرفهم يحكمون عليكما بالجنون . . .

ثم عرجت على حديث الزواج . لم تعد تفكر إلا فيه . وما كان ثمة شىء يملأ شللى رعباً كالزواج . فهل تراها نسيت ما طالعاه ، ومبادئ « جودوين » السليمة ؟ . . قال :

– الزواج شىء بشع كريه . وإن قلبى لينقبض إذ أفكر فى هذه السلسلة الشنيعة ، أثقل ما صنعه البشر من الأصفاد الحديدية والأغلال لتقييد النفوس الكريمة . . والناس الشرفاء ليسوا

بحاجة إلى الشرائع . . هل ترين رجلا شريفاً يرضى بإخضاع مخلوق حبيب إليه ، عزيز عليه ؟

– ولكنك مع ذلك كنت تريد أن أتزوج صاحبك هج !

– أجل ، ولكن لا على يد قسيس ، أو طبقاً لشرائع الخلق ، بل زواجاً حراً ، الحب كاهنه ! . .

فقالت إليزابيث باحتقار :

– أهذه إذن هى النصائح التى تسديها إلى أختك يا برسى ؟

لقد ضاعت إليزابيث فى نظره . لم تعد تنطق إلا عن الهوى ! إنه لم يجئ إلى هذه الدار إلا ليراها . فلم يعد أمامه الآن إلا الرحيل

وجاءته دعوة من ابن عم لأمه فى مقاطعة ويلز . فلباها . وفى مروره بلندن كتب إلى مس هتشنر يتمنى لو رآها وتغدى معها . فردت عليه بأنها تخشى مغبة هذا اللقاء على سمعتها ، فضلا عن التباين بين مركزها الصغير ومكانته الاجتماعية ! . . فاستنكر هذه الفكرة ، وكتب إليها خطاباً جميلا فى المساواة بين الطبقات ، ودعاها فيه « شقيقة روحه » . . فبدأت تفكر فى أن اسم « اللادى شللى » هو اسم بديع . . وراحت تنظر إلى نفسها فى كل مرآة . . .

— ٨ —

شللى الآن على صخور بلاد الغال ، يصغى إلى هدير السيول ، ويقرأ رسائل أصحابه . فهو ، من عزلته الموحشة هذه ، ما زال يوجه عدة نفوس : مس هتشنز المعلمة ، هج الوفى ، خاله الكابتن بيلفولد الذى صار ويلا على المتقين ، إليزا وهارييت وستبروك . . وغيرهم

وتلقى شللى من هارييت رسالة أحزنته وأقلقته . لقد أراد أبوها أن يرغمها على العودة إلى « مجمع الشابات » حيث الطالبات لا يخاطبنها ، والمعلمات يعددنها فتاة ساقطة . فهى تؤثر أن تقتل نفسها على البقاء فى هذا السجن !

وجزع شللى . فقد بدا له منطق تلميذته لا غبار عليه ، وهى دروسه التى كوّنت هذه التلميذة . ولكن أيتخلى عنها للموت ؟ إنها تستطيع أن تقاوم ، وتأبى العودة إلى المدرسة

وكتب إلى أبيها خطاب عتاب . فاستنكر الخمار خطابه : فيم يتدخل هذا الفتى الأرستقراطى ، الذى يحوم منذ ستة أشهر حول بنتيه ؟ . . .

وزعمت إليزا أنه سيتزوج من هارييت .. ولكن هل سمع الناس يوماً أن بارونا تزوج من بنت صاحب حان؟إن هذا الفتى

ينشد ولا شك شيئاً آخر غير الزواج . فإنه منذ ذلك المساء الذى رآه فيه بحجرة بنته ودعاه لتناول كأس مع أصحابه فأبى واستكبر حكم بأنه لا يمكن لحفيد السير بسيش شللى ، صاحب الملايين ، أن يكون صديقاً للشعب ، أو نصيراً للمساواة !

وتلقت هاربيت منه أمراً بالاستعداد للسفر إلى المعهد . فكتبت إليه أنها أشد ما تكون شقاء ، وأنها مضطهدة إلى أقصى حد . . وأنها مستعدة للهرب معه إذا قبل . . .

ما من شك فى أن عليه التزامات نحو هذه البنية . فهو الذى نفخ فيها من روحه ، لتكون روحها باسلة ، تأبى قبول المظالم . وكانت رسالة منه هى السبب الأول فيما جرى عليها من الخزى . ولكن إذا هرب معها فكيف يعيشان ؟ وأين ؟ .. ومم ؟ .. فهو لا حرفة له ، وليس أمامه مستقبل ! . ويا ترى أهو يحبها ؟ وهل فى مقدوره أن يحب بعد اليأس الذى أردته فيه هاربيت الأخرى ، بنت عمه ؟..

بيد أن هاربيت هذه ذات حسن خلاب

وأسكرته فكرة الرحيل بصحبة هذه الإنسانة الساحرة ، التى أثارته إذ رآها ذات ليلة مريضة فى فراشها ، مجللة بغدائر شعرها المتألق كالنار . . لقد كان يعز عليه أن يبعد هذه الصورة اللذيذة عن خياله . فذهب إليها فرآها شحبت ، ونحفت ، واكتأبت :

— إذن ، فقد عذبوك كثيراً ؟

— كلا . . يا صديقى . . كلا . .

وترددت فى أن تقول « إنما تعذبت لأننى أحبك » . . غير أن ذبولها ، وعينيها المتعلقتين بعينيه ، واضطرابها ، هذه كلها باحت له بسرها . فقد كانت مجنونة به ، مشغوفة حباً . وقد حوّلها وبدّلها خلقاً آخر ، وهى من قبل قد أرادت أن ترده إلى الطريق المستقيم ، ولكن منطقه جرفها فى تياره ، وتقبلت هزيمتها ، راضية هانئة . . وإنها الآن تعبد الرجل ، وتتبع المبدأ !

وكتبت إليه تغالى فى متاعبها ونوائبها ، لكى يهرع إليها . . فخيل إليه أنه من الويل تكريس الحياة لامرأة ، إذا كانت هذه الحياة ستكرس لخدمة الإنسانية . بيد أنه ، إزاء هذا الوجه الفتان ، الذى تكفى كلمة واحدة منه لتبديد سحب الحزن المنعقدة على جبينه ، ضعف ، وقرأ على مبادئه السلام . . ولكنه استبعد فكرة الهرب حالا ، فلا حاجة إلى تعجل الحوادث . . ولكن لتطمئن هارييت ، فإذا حاولوا معها تعسفاً أو عنفاً فما عليها إلا أن تدعوه ، فيلبيها ، ولو كان فى أقصى الأرض ، ويأخذها عنهم

وكتب إلى هج يصف الموقف ، فرد عليه يرجوه ألا يهرب مع هارييت قبل الاقتران بها . وكان هج يعلم كراهية شللى للزواج ، فجابهه بحجج قوية : « إذا كنت لا تتزوجها ، فمن ذا

الذى يخاطر ويعانى ؟ إنها هى التى سيحتقرها الناس . إنها هى التى ستضحى بسمعتها وأمانها ، فهل من حقك أن تسألها هذا ، أو تفرضه عليها ؟ »

ولم يكن شللى يشمئز من شيء اشمئزازه من الأنانية . ولكنه أحس أنه بزواجه يرتكب أمراً مشيناً ! . كانت فصول «العدل السياسى » عن «السلاسل الزوجية» تقلقه وتعذب ضميره ، فقيل له إن جودوين نفسه قد تزوج مرتين .. فاطمأن واستراح ، لكنه لم يتعجل تطبيق الفكرة الجديدة

ودعاه عمه الكابتن بيلفولد إلى بلدته ككفيلد . . فلبى الدعوة فرحاً بأنه هناك سيلقى المعلمة الجميلة ، ذات الوجه الرومانى ، «شقيقة روحه» ، التى كان يريد أن يتم «تنويرها» وتلقينها تعاليمه !

ووعد هارييت بأن يعود إلى لندن عند أول نداء منها . .

وقبل أن ينقضى أسبوع واحد جاءت رسالة مستعجلة تدعو شللى إلى لندن ، فإن الطغاة يريدون من جديد تسليم الملاك الكريم إلى الشيطان المدرسى الرجيم ! . . فرأى شللى أن الداء لا دواء له ، فعرض عليها : الفرار ، ثم القران . .

وفى اليوم التالى حملت عربة المسافرين إلى إدنبره ، عاصمة آسكتلنده ، هذين الطفلين ، اللذين لا يتجاوز مجموع عمرهما معاً خمسة وثلاثين عاماً . . .

— ٩ —

زوجان عاشقان حدثان ، جميلان ومضطهدان ، يؤثران فى النفوس ، ويستميلان القلوب ، إلى حد لا يكاد يُقاوم . هل يسع أهل إدنبره ، إلاّ الترحيب بهما ؟ . بهذين الزوجين الصبيين ، اللذين وصلا إلى أبواب مدينتهم فى بؤس مشرق ! ..

وكان شللى قد اقترض بضعة جنيهات من صديق لم يبق منها عند الوصول إلى إدنبره بنس واحد . وكان عبثاً أن يرجو مساعدة من أبيه المستر تيموثى ، الذى جن لفرار ولده . ومع ذلك فقد وجد مالكاً ظريفاً روى له قصته ، فأثرت فيه حكاية هذه المغامرة ، وآية جمال هارييت ، والوعد بالدفع السريع . فأجر لهما دوراً أرضياً بديعاً .. وأقرضهما المبلغ الضرورى للطعام خلال بضعة أيام ، وللاحتفال بعقد قرانهما طبقاً للطقوس الكنسية الأسكتلندية البسيطة . وكان شرطه الوحيد : أن يقبل شللى وزوجته دعوته إياهما فى ليلة زفافهما للعشاء معه وأصحابه .

وعلى ذلك احتفل حفيد السير بسيش شللى بليلة عرسه ، فى وسط تجار إدنبره . . وعملت نشوة الخمور ومحاسن هذين الزوجين الشابين فى رؤوس الضيوف ، أولئك الأتقياء الشرفاء.. وتطورت الدعابات إلى سفاهات . وزاد احمرار وجه هارييت

الحسناء ، المتواضعة . . فانصرف عنهم شللى وزوجته

وبعد فترة قصيرة قرعوا باب غرفتهما . ففتح شللى . وقال صاحب البيت وهو يترنح ، ومن ورائه أصحابه جميعاً :

ـ إن العادة عندنا جرت بأن يأتى المدعوون ليلة الزفاف فى منتصف الليل ، ويحمّوا العروس بالويسكى . .

فصاح شللى مسدداً بيديه مسدسيه :

ـ إنى ألهب بالرصاص دماغ من يتجاسر على الدخول !

وكان صوته يرتجف ، وعيناه تبرقان كما كانتا تبرقان فى كلية أيتون . فرأى تجار إدنبره أن هذا الفتى ، الذى له رأس فتاة ، أشد خطراً مما يبدو ، وأقوى مراساً مما كانوا يزعمون . . فانحنوا له ، وتمنوا ليلة طيبة ، وانصرفوا

إن بضعة أيام قد كفت هذا الزوج الشاب ، الذى كان يرى أن عمله هذا « وليد الإرادة لا الهيام » . . كفته ليذوب جوى وصبابة ! . . وكانت هارييت فعلا آية جمال : دائمة الحسن ، دائمة النضارة ، والحيوية ، شعرها دائماً منسق ، ممشط ، منظم ، بغير خصلة واحدة مجنونة طائرة . . فهى بهذا كله أشبه ما تكون بزهرة بيضاء وردية مستوية على غصنها ، أو ملكة مستوية على عرشها . . وكانت ثيابها بسيطة جداً ، ولكنها دائماً نظيفة أنيقة . وهى وإن لم تكن مثقفة حقاً ، فقد

كانت مهذبة جداً ، ولا سيما أنها قرأت عدداً كبيراً من الكتب . وكانت تقرأ طول النهار ، وتفضل الكتب الأخلاقية . وقد بعث فيها أستاذها وحبيبها روح الفضيلة والعفاف . وكان «تلماك» فى قصة «فنلون» المشهورة هو بطله الأثير عنده ، فصار بطلها !

وكتب إلى مس هتشنر ، معلمة القرية ، « شقيقة روحه » ، يتساءل فى قلق عما تظن فى زواجه : « يا أعز صديقة ، أيمكننى أن أظل أدعوك هكذا ؟ أم أننى فقدت بسلوكى المبهم تقدير الحكماء والفضلاء ؟ . لشد ما نحن عبيد أرقاء للظروف ! . . ولعلك تتساءلين كيف لى أن أرضخ لطقوس الزواج !.. وإذا لم تكن هارييت ، وهى فى السادسة عشرة ، ما أنت عليه فى سنك المتقدمة عنها ، فساعدينى على تكوين تلك النفس الجديرة بعنايتك ورعايتك . . . »

ودعاها أن تلحق بهما لتعيش معهما فى إدنبره ، حيث صار وجود هارييت حائلا دون أية مظنة

فلم تقبل مس هتشنر الدعوة . وربما كان نداؤه الشعرى المحبب « يا أعز صديقة » غير كاف لمحو العبارة المنحوسة الخاصة بالأعمار : « السادسة عشرة » ... « السن المتقدمة عنها » ...

وذات يوم جاء هج ، ليقضى معهما بضعة أسابيع فى إجازة . ولما رأى هارييت بهت من جمالها . فهو لم ير قط امرأة

مشرقة بالشباب والهناءة والحسن مثلها

واقترح شللى الخروج للتنزه وزيارة قصر مارى ستيوارت . ولما خرجوا عاد شللى فاعتذر بأن لديه خطابات يكتبها ، ورجا هارييت أن تصحب هج فى الصعود إلى الأكمة المشرفة على المدينة كلها .. وأعجب هج بالمشهد كثيراً .. وظلا طويلا جالسين على القمة . ولعل دليل هج قد راقه ، بحيث راقت النزهة أيضاً ! ..

وفى نزولهما لاحظت هارييت : أن الهواء الشديد يرفع ذيل ثوبها ، وأن هج ينظر خلسة ، باهتمام ، إلى كاحليها ، ومفصلى ساقيها . . . فعادت ، وجلست على الصخرة ، وأعلنت أنها ستبقى حيث هى ، إلى ما شاء الله ، أو تسكن الريح . وكان هج يتضور جوعاً ، فمضى وحده ، وتركها . . . وبعد ذلك تبعته تجرى من خلفه . . .

وكان شللى يخرج كل صباح لتسلم بريده الضخم ، وبعد الفطور يترجم للعالم الفرنسى « بوفون » مؤلف « التاريخ الطبيعى » الذى كان قد بدأ فى نقله إلى الإنجليزية . وتذهب هارييت وهج للتنزه . فإذا ساء الجو جلست تقرأ له ، لأنها كانت تحب كثيراً المطالعة بصوت عال ، وتحسنها الإحسان كله

وكان ذلك فى عام ١٨١١ ، عام النجم المذنب المشهور ، وعام النبيذ الفاخر ، وعام الليالى المشرقة بالصحو والصفاء . .

– ١٠ –

لما انقضت إجازة الأسابيع الستة ، وآن لهج أن يعود ، قرر شللى وهارييت أن يصحباه ، ليعيشا معه فى يورك ، أصدقاء لا يفترقون ، خلال الأشهر الباقية على مدة تمرينه ، ثم يذهب ثلاثتهم إلى لندن ، ليقضوا بقية أيامهم : يقرأون ، ويكتبون ، ويطالعون

وكان لقاء شللى لمدينة يورك مخيباً للأمل . فقد وجدها بلدة كئيبة ، غرفها حقيرة ، فكرهها. ورأى أن يقصد خاله الشهم الكابتن بيلفولد ، وهنالك يزور مس هتشنر ، المعلمة ، « شقيقة روحه » . . فلعلها تقبل الحضور معه إلى يورك . . ثم يمر بلندن ، ويأتى معه بإليزا ، التى اشتاقت إليها هارييت . فسافر . وبقيت هارييت وهج وحدهما . فكان مركزاً غريباً لذيذاً معاً . فهما فى هذه المدينة طليقان كما لو كانا فى جزيرة بعيدة عن العمران . . وأحست هارييت بمسرة الطفلة ، إذ أصبحت هكذا «ربة بيت» لهذا الرفيق الشاب المرح . فإن هج ، بلهجته اللاذعة الساخرة ، يدخل على فؤادها ألواناً من البهجة ، وكان معجباً بكل ما فيها . يلحظ ثيابها ، وبزتها ، وزينة شعرها . ويصغى إلى قصة « تليماك » المملة وهى تطالعها ،

ويثني على صوتها ! . .

وفكر هج : هذه الدرة الفاتنة ، يتركها شللى له وحده عن طيبة خاطر ، وهى من أسرة خمار ، لم تربها على ملاحظة ضروب التحفظ والتحرز . . أن يعيش هكذا معها ، قد بعث فيه رغبة جامحة فى تمنيها بكل قواه . ولكنه قال لنفسه : « إن هذه فكرة سوء شنيعة ، وإن زوج صديق يحبه كل هذا الحب لا يجوز أن تكون طريدة له . . يلاحقها برغبته . . ولكن هل الذنب ذنبى إذا كان شللى يلقى بها فى أحضانى ؟ أيمكن أن يتصور المرء منه كيف يقضى أيامه ولياليه فى كتابة رسائل عن الفضيلة وفى بيته مثل هذه الدرّة اليتيمة ؟ . . إنها امرأة آية ، ومعجزة فى الغاية »

وفى أول يوم لغياب شللى خرجا يتنزهان على شاطئ النهر . وطفق يحدق فيها ، مفتوناً بها ، ويقول لها ألوف الحماقات . فراحت تتكلم عن زوجها ، الذى تنتظر عودته بفارغ الصبر ، لأنها تريد أن تراه ، وتعلم أنه سيحمل إليها شقيقتها العزيزة إليزا :

ــ سوف ترى إليزا . . إنها جميلة جداً . ولها شعر أسود فاحم يتوجها . وهى حادة الذكاء . . وهى التى هدتنى فى الظروف الخطيرة التى مرت بى ، وهيأت لى من أمرى رشداً . .

ــ أمرّت بك إذن ، أيتها البنت الصغيرة ، ظروف خطيرة ؟

فروت له هاريبت متاعبها فى المدرسة ، ثم عقبات زواجها .
وظلت فترة منحنية بفكرها على الماضى

ويمضيان هكذا فى نزهتهما ، يتبادلان الاعترافات . .
ثم يعودان إلى البيت . . فيعدان الشاى ، وهج لا يفتأ يمزح
ويلعب . . ثم تقترح هاريبت أن تطالع له . ولكنه لم يدرك مما
قرأته فى تلك الليلة حرفاً . .

وفى اليوم التالى قال لها إنه يحبها حب جنون مستعر ! . .
فاضطربت ، وسخطت . ودافعت عن نفسها . وذكرت شللى ،
وتحدثت عن الفضيلة :

ـ أفلاترى شناعة مسلكك ؟ . . أيعهد بردى إليك حمايتى
فتخون ثقته ؟ . . ولكننى مطمئنة إلى أنك قد شفيت لساعتك ! .
وأتوسل إليك ألا تشير بعد الآن إلى هذا كله بكلمة . . .
ومن جانبى لن أحزن شللى القوى الإيمان بك ، فسألزم الصمت ،
وأضرب صفحاً عما كان

وكانت تتكلم بحرارة ! . . واعترافات الهوى ومشاهده هى
معارك المرأة الجميلة . والجندى الجرىء لا يكره القتال . .
وانتصرت هاريبت الباسلة . . ووعد هج بأن يكون عاقلا

ولما عاد مساء من مكتبه رأى إلى جانب هاريبت ، على
الديوان ، امرأة كبيرة ، ذات شعر أسود . . فقالت له هاريبت

ـ هج . . هذه إليزا . . . وقد جاءت . . أليس ذلك ظرفاً منها ؟ . . وهذا هو هج ، يا إليزا ، صديقنا الحميم ، الذى كثيراً ما حدثك عنه شللى . .

فحنت إليزا رأسها بجفاء . .

ومنذئذ صار جو هذا البيت عنده لا يحتمل ، فقد تولت الأمر فيه إليزا ، واحتلت مكانها فيه ، تقوده كما يقود القبطان باخرته ، يرفع على ساريتها علمه ، ولا يسمح على ظهرها بسيد سواه . . وقد بدأت عملها بانتقاد سلوك شللى نقداً مرّاً :

ـ إذن ، فلو أننى لم أجئ لتركك شللى هكذا وحدك مع رجل شاب ؟ . . إن هذا لا يليق . وويناديك : « يا حبيبتى هاربيت » ؟ وأنت تسمحين له به ؟ يا لرحمة السماء !

كان هج منذ محاولته الأولى قد احترم وعده بأن يكون عاقلا وقد فرحت بذلك هاربيت وخاب أملها معاً ! . . كانت واثقة من قدرتها على الذود عن عفتها ، ولم تكن تكره الإغراء لتبرهن على ذلك ! . . . وخرجا يوماً فى نزهة قصيرة ، فوقف هج على الكوبرى ، والنهر من تحته يجرى ، ويغلى

ـ هاربيت ، يا حبيبتى ، أفلا ترين أن إليزا تحسن عملا لو انطوت فى مياه النهر المتدفقة ، فتجذبها دوّاماته من شعرها ، فتدور ، ثم تدور ، كهذه القطعة من الخشب ! . .

فأدارت هارييت رأسها ، وانفجرت ضاحكة . . إن هج كان وقحاً ، ولكنه لذيذ الدعابة حقاً . .

— ما أرق ضحكتك ! . . إنها ضحكة موسيقية ، شجية ، تشرح الصدر . . أيتها العزيزة هارييت ! . .

فأحست هارييت الباسلة أن الحرب على الأبواب ! . .

— ١١ —

فى اليوم التالى عاد شللى قبلما يتوقعون . وهو لم يوفق فى شىء ، فقد رفض أبوه أن يراه ، وقال لبيلفولد : « لكنت أوثر أن أدفع نفقة أولاده غير الشرعيين . . أما أن يتزوج فلا تذكره لى بعد الآن بخير ولا شر ! . . »

وخشيت المعلمة مس هتشنر على سمعتها ، فرفضت صحبة شللى إلى يورك . ولما مر بلندن عرف أن إليزا لم تنتظره . فرجع متعباً ، مضنى ، منكسر الفؤاد ، مؤملا أن يجد عزاء فى صحبة زوجه وصديقه . فلم يجد إلا جوّا مثقلا بالضيق والحرج . . إليزا مغلقة على نفسها حجرتها ، تمشط شعرها ، طوال نهارها . وهج وهارييت لا يمزحان كعادتهما ولا يتجادلان ، فإذا ما خاطب هج هارييت ردت عليه بلهجة جافة .. فقال شللى لهارييت :

— إنى لا أحب منك ، يا عزيزتى ، مظهر الكبر الذى

تتخذينه إزاء هج . . فهو خير صديق لى . وقد جاء ليرعاك فى غيابى . وإذا كانت أختك اليوم عندك فلا تجعلى هذا سبباً فى التنكر لرجل أعده أخاً . . .

– يا له من صديق بديع !. لقد قال إنه يحبنى حباً جنونياً !. فحاولت أن أمزح وحملته على السكوت ، وزعمت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، ولكنه أمس عاد فأعلن إلىّ أنه لا يستطيع العيش من دونى ، وأنه سيقتل نفسه إذا لم أستسلم له !

فشعر شللى بدمه يجمد فى عروقه . وكأن قلبه قد كف عن الخفقان :

– هج ! هج فعل هذا ؟ ! ولكن ألم تلفتيه إلى . . .

– قلت له كل ما يمكن قوله .. إنه يخون عهد الصداقة ، وإنه يغتال ثقتك فيه ، فأجابنى : « وما شأن هذا كله عند ما نحب ؟ . . إنه مما يناسب شللى ، ذا الروح البارد الجامد ، أن يحاضر فى الفضيلة . . أما أنا فأحبك . . وكل ما بقى نافلة لا يعتدّ بها . . ثم أى ضر يحيق بشللى ؟ . . وفيم يسىء إليه ما دام سيظل جاهلا بعلاقتنا ؟ . . فلماذا لا تعدينى بحبك إذا ظللت محتفظة له بعطفك ؟.. وهل هو يعنى كثيراً بك ، أو يفكر فيك ؟ » . . وقال عنك إنك متحمس للخزعبلات والأوهام ، وإنك شعلة أفكار ، ولكنك جلمود ثلج إزاء العواطف ، وليس

لغير العواطف وزن فى حياة الإنسان . . فأجبت جاهدة ما استطعت إلى الجواب سبيلا . .

فخرّ شللى على الديوان مرتعشاً ، وبدت له الدنيا غبراء متشحة بنقب سوداء ، ودارت به الأرض . . ثم سقطت من عينه الدنيا . . « أما أن هج قد حاول غواية زوجتى ، وأن يختار لهذا اللحظة التى أعهد فيها إليه رعايتها . . . وهو الذى كان قلبى لا يفيض إلا بمحبته . . فما أشد هذا فسقا . . ومع ذلك كان مسلكه فى أكسفورد نبيلاً ، مثالياً فى الإيثار . . فلا بد لى من محادثته ، حتى يرى الغى من الرشد . . . »

وسأل هج أن يتبعه إلى خارج المدينة . . وكان هج يتوقع هذا الموقف . واستعد له . فلم ينكر شيئاً :

ـ نعم . . هذا صحيح . . وقد أحببت هارييت منذ أول يوم رأيتها فيه بإدنبره . . فهل هذا ذنبى ؟ إننى لا أستطيع مقاومة جمال النساء .. وهارييت رائعة الجمال ، فوقعت فى حبها لأول وهلة

ـ ليس هذا هو الحب ، ولكنه الاشتهاء . وهو غريزة وضيعة . وليس هو تلك العاطفة الشريفة ، التى تفرق الإنسان عن الحيوان . . الحب ؟ . . إن الحب يفرض نسيان الذات ، والبحث عن هناء المحبوب .. وشعورك هذا ليس حباً بل أنانية !

ـ سمّه ما شئت . . إن هى إلا أسماء . . بل هو عاطفة

مروعة فى جموحها ، وبودى لو قاومته ، لولا أننى وجدته لا يقهر

ــ ما من عاطفة إلا ويمكن قهرها ، وكبح جماحها . والإرادة كفيلة بالظفر بها ، والتغلب عليها

وكان هج شاحباً منكسراً . . يبدو شقياً . فهو قد أحب شللى ، وهو يعلم أنه مامن امرأة تساوى التضحية بمثل هذا الصديق

ــ إنى آسف لماحدث ياشللى . وأريد منكما أن تصفحا عنى

ــ إنى أمقت خطيئتك ، لا شخصك . وأرجو أن يجى حين من الدهر تنظر فيه إلى ذنبك الشنيع بمثل ما أنظر إليه من الاشمئزاز . وعند ما يحين ذلك الحين تكون الكفارة . فالشعور بالندم يمحو الذنوب . . .

وشعر شللى بالراحة ، إذ كبح هكذا جماح غضبه وغيرته ، وإذ كشف لصاحبه عن طريق الخلاص ، وإذ كاد هو ينسى الاعتداء

غير أن النساء دون ذلك تسامحاً . فعندما عاد شللى ، وأعلن غفرانه للأثيم ، صاحت إليزا :

ــ ماذا ؟ أترغب فى معاشرة هذا الرجل؟ يا للسماء الرحيمة ! . . وماذا يكون من أمر أعصاب هارييت المسكينة ؟ !

وفى اليوم التالى عاد هج من مكتبه فوجد البيت خالياً ، ينعى من بناه . . .

— ١٢ —

عندما هرب شللى والفتاتان من هج المنكود قرروا الذهاب إلى إقليم البحيرات . حيث يعيش شعراء أفذاذ من أمثال : « ساوثى » و « كولريدج » . واستأجروا كوخاً خلوياً فى حضن الزهور . وجاءت مراسلات هج تدعو إلى اليأس منه ! ثم رسـائل المعلمة مس هتشنر « شقيقة - الروح » التى أصبحت — بعد سقوط هج — النجية الوحيدة ، وموضع السر.. تسافر إليها من شللى كل يوم تقريباً صفحات رقيقة ، تضفى عليها هارييت دعوتها إياها للحاق بهما . .

ولما أخذت مسألة النقود تزداد كل يوم تحرجاً كتبوا إلى الدوق دى نورفولك ، فجاءتهم منه دعوة لقضاء آخر الأسبوع فى قصره

وأتت زيارتهم له بأحسن النتائج . فإن المستر وستبروك عند ما علم بأن بنتيه قد قضتا بضعة أيام فى قصر دوق عظيم ، وأن زوج بنته قد وصل إلى ذلك القصر وليس فى جيبه إلا جنيه واحد ، نزل للزوجين الشابين عن مئتين من الجنيهات معاشاً سنوياً ! ولم يستطع المستر تيموثى أن يبدو أشد منه بخلا . فقرر أن يعيد إليه المئتين من الجنيهات فى السنة

وكان أهم ما فى الأمر عند شللى : أنه حصل على هذه

النتيجة المرضية ، دون أن يتنزل عن شىء من جانبه ، فكتب إلى والده أنه مع ذلك لا يمكنه أن يعد باخفاء آرائه فى الشؤون الدينية أو السياسية . .

ولقى شللى الشاعر ساوثى الذى يعجب به ويحبه لأنه يربط فكرة الشعر بالحياة المجنحة المحلقة فى السماوات العلى ! . فرأى الرجل يعيش فى بيت جميل ينبعث منه الدفء . غير أن زوجته أشبه بربة بيت مدبّرة طاهية منها بالملهمة ! . . كانت من قبل خياطة ، وهى لذلك تجلد كتب زوجها بالقماش ! . . وكانت دواليب بياضاتها هى محراب نبوغها . . وكانت لا تتكلم إلا عن : النقود ، والطهى ، والخدم ، كأسخف الزوجات ! . . أما الشاعر فكان من رأيه : أنه لا بد للمجتمع من التحول ، ولكن لا يمكن أن يجىء التحول طفرة ، بل تطوراً بطيئاً

فخرج شللى من عنده غضبان أسفاً !

ولم يكن ساوثى ليشك فى الأثر السيئ الذى أحدثه فى نفسية شللى . ففكر فيه : « يا له من ولد غريب . . إن أشد همومه راجع لمعرفته أنه وريث أملاك هائلة ، وهو جزع قلق من دخل ستة آلاف جنيه فى السنة ، كما كنت فى سنه جزعاً قلقاً من أننى لا أملك بنساً واحداً . . . أما ما خلا ذلك فهو يكاد يكون طيفى . يزعم نفسه ملحداً وما هو بملحد . إن هو إلا

مرض من أمراض الشباب أصابنا جميعاً ، ومر بنا . . . وخيراً فعل بمجيئه عندى ، أنا الطبيب المداوى . . وقد وضعت له علاجاً بمطالعة فلسفة « بركلى Berkeley » التى ستهديه على رغمه ، من حيث يدرى ولا يدرى . . والله يعيننا على جعل هذا السيد ، الفتى ، شللى ، يدرك أنه يستطيع ، بجنيهاته الستة الآلاف ، ضروباً عدة من الخير والبر » . .

وهكذا التقت الفتوة اليافعة بالسن الناضجة . وكانت الثانية تقول للأولى : « ويا نفس جدّى إن دهرك هازل ! . . »

ووجد شللى صـــدفة ، فى إحدى المجلات ، مقالا بقلم الشاعر ساوثى ، يصف فيه جورج الثالث بأنه : « خير الملوك الذين استووا ويستوون أبداً على عرش » . . كان ذلك تملقاً مبتذلا رخيصاً ، ولكن ساوثى كان يريد أن يصبح شاعر القصر وطريق الوصول إلى آلاء الدولة طويل صعب المرتقى . . فلم يغتفر شللى هذا النوع من الضعة . فأخبر ساوثى بأنه ، من الآن فصاعداً ، سينظر إليه كعبد أجير . . وقطع ما بينه وبينه . . وصار لا يعنيه من أمره كثير ولا قليل

ثم اكتشف أن معبوده جودوين مؤلف « العدل السياسى » حى يرزق . . وعرف عنوانه فى لندن ، فكتب إليه . . كتب إلى هذا الرجل العظيم الذى يحطم سلاسل الزواج ، وهو عدو

الألوهية ، وإمام الملحدين ، وهو جمهورى ، وثورى ! .. فعبر عن إعجابه ، وتقديره ، وتفانيه . وأنه يرى فيه شعلة النور التى تضىء الظلمات الضاربة من حوله . . . ويتمنى الاتصال به

فلما تلقى جودوين هذه الرسالة سر كثيراً ، فهو بعد ما نبه ذكره عند نشره « العدل السياسى » عاد القهقرى إلى الخمول ، وكاد يصير مغموراً . . وهو أيضاً ، مثل تلميذه هذا ومريده ، قد اضطرب حبل حياته ، وبعد أن كان فى شبابه قسيساً انقلب فى سن الثلاثين ملحداً وجمهورياً . وفى ١٧٩٣ نشر كتابه المشهور . فكاد « پت » رئيس الدولة يشرّفه باتخاذ الإجراءات القانونية ، لولا أن ثمن الكتاب كان عالياً — ستة جنيهات — مما رأى فيه الوزير ما يكفى لدرء غائلة هذه المبادئ الهدامة . وبعد ذلك بأربع سنوات تزوج جودوين من « مارى وولستونكرافت » ، الأديبة النابهة . ثم ماتت وهى تضع بنتاً . فتزوج بأرملة تدعى « مسز كليرمون »

وصارت حياة جودوين مؤلمة ، فقد كان لمسز كليرمون من قبل بنت وولد هما « جين » و « شارل » ، ثم ولدت من جودوين طفلها « وليم » ، أما مارى وولستونكرافت فقد تركت له بنته « مارى » ، وفتاة من زواجها الأول هى « فانى »

ولكى يطعم جودوين كل هـذه الأفواه عمل على نشر

كتب للأطفال ، وتولت زوجته إدارة المكتبة . وكانت حياته قاسية محزنة ، محرومة من مسرات الغرور . فتلقى رسالة شللى بحماس ، وفى رده على رسالته سأله المزيد من التفاصيل عن شخصه . . فبعث إليه شللى بخلاصة حياته ، حاملا على والده « مستر تيموثى » ، وعميد أكسفورد « الدكتور كيت » . وقال إنه وريث دخل يقدر بستة آلاف جنيه فى السنة ، وإنه تزوج من فتاة تشاركه أفكاره ، وقد نشر : قصتين ، وكتيباً فى الإلحاد ، سيرسلها كلها إلى أستاذه . .

وأثر هذا الخطاب فى فتيات تلك الأسرة ، وقرأنه جميعاً باهتمام عظيم . . وإن كان أبوهن لم يرقه تحامل الابن على أبيه ، فلعل أباه لم يرد له بذلك إلا الخير . . ولا يجوز للمرء الإسراف فى الحكم وهو فى ريق العمر ، ثم لا يجوز له خاصة التهور فى نشر أحكامه . .

وكتب جودوين إلى شللى أنه : « فى السن التى ينبغى أن يكون المرء فيها تلميذاً ، لماذا يتهالك على نفسه ليكون أستاذاً ؟ »

ولولا أنه جودوين الموقر كاتب هذه الرسالة لسلكه شللى فى عداد أنصار التعصب المأجورين ! . . ولكنه انحنى بارتياح ورد عليه : « إنى لا أسأل إلا أن أكون تلميذاً للكفاية العليا التى لا نزاع فيها »

وراح شللى يبنى العلالى والقصور ، يضم النفوس الأخرى الموعودة إلى حلقته الروحية . . أو لم يوفق فى الجمع بين هارييت وإليزا ؟ . . إذن فليس أسهل من استئجار فيلا شامخة فى بلاد الغال ، يعيش تحت سقفها معهم : مس هتشنر « شقيقة روحه » ، وجودوين « صديقه الموقر » ، وأسرة هذا الصديق الجميلة ! . .

ولأنه رأى تشكك أستاذه فيه أراد أن يبرهن بمثل رائع على أنه يستطيع شيئاً ، رغم سنه الباكرة . . فقبل أن يسكن « بيت التأملات » سيذهب لقضاء بضعة أشهر فى إيرلندا ، مع هارييت وإليزا ، ليعملوا على تحرير الكاثوليك الإيرلنديين من تعصب مواطنيهم ، وتحسين مصير تلك البلاد المنحوسة

— ١٣ —

الفارس المغوار ، الذى جاء يحرر العبيد من الذل الروحى ، والحرمان المادى ، قد رجمه هؤلاء العبيد بالطوب ! . . ففى اجتماع للكاثوليك صفروا استهزاء ، إذ أعلن أن إبعاد الإيرلنديين من المناصب العامة بسبب دينهم خطأ غير جائز ، لأن الأديان سواء . . . فآثروا تعصب مضطهديهم على تشككه وإلحاده ! .

وكانت نشرته « خطاب إلى الإيرلنديين » التى وجهها من

قبل إليهم على مثل هذه النغمة . فهو يدلل على أن تحرير الكاثوليك يعد خطوة فى سبيل التحرر العام المطلق ، وأن الطيبة ، لا البراعة ، هى التى يجب أن تكون مبدأ كل سياسة . . وأخيراً ، ينبغى للإيرلنديين – قبل أن ينتظروا تحررهم من الإنجليز – أن يحرروا ذات أنفسهم من مساوئهم ، بأن يكونوا : معتدلين ، عادلين ، محسنين . وجرى فى أوهام شللى أن تعاليمه هذه ستصل مباشرة إلى صميم قلوب فقراء « دبلن » ! . . وأعد نفسه للاستشهاد فى سبيل هذا الإنجيل ! . .

ولم تكن هارييت دونه حماسة . فكانا يتجولان فى شارع ساكفيل وجيوبهما محشوة بالنشرات . فإذا ما توسما فى أحد « علامة القبول » دسا فى يده منشوراً ! . وكانا من شرفة مسكنهما الصغير يلقيان بهذه النشرات إلى المارة ! .

وكان جودوين ومس هتشنر يتوقعان كل يوم القبض عليه . ولكن ممثلى التاج فى العاصمة الإيرلندية لم تزعجهم خطبه ولا منشوراته

وكان قلب شللى يتمزق إذ يرى رجال البوليس يجرّون السكارى فى الطرقات . . ولما رأت هارييت أنهم يشربون الويسكى لأن اللحم غال جداً أضربا عن أكل اللحم ، وأصبحا من النباتيين !

وفى ليلة من ليالى الأعياد، التى تشرب فيها دبلن الخمر غير ممزوجة بالماء ، رأى شللى وهارييت مواكب الجائعين ، واقفين صفوفاً ، يتفرجون على حفلة راقصة فى قصر الحكومة ، وهم يعجبون بالملابس الزاهية والحلى الغالية . . فسخط شللى ، وقنط من هذا النقص فى الإحساس بالكرامة . .

كانت إيرلندا الجائعة عنده شبيهة بامرأة جميلة معذبة . . وهو مستعد للنضال فى سبيلها ، ومعاناة العذاب من أجلها ! . . فسارت وراءه فى الطرقات جماهير زرية الهيئة ، مهلهلة الثياب . فقبض عليه الجنود ، وجلدوه . وكأن فلسفته الروحانية الرحيمة هذه قد وفقت بين الأمتين المتعاديتين . . فرأى أن الجزيرة الشقية تضحك راضية بشقائها ! . فماذا يسعه إزاء هذا ؟ وماذا يرجو ؟ . . لقد سأل جودوين رأيه ، فنصحه بالعودة تجنبا لإراقة الدماء . . إذ لم يؤن الأوان بعد لتحقيق مشروع شامل كامل لخير الإنسانية جمعاء ! .. فرضخ آخر الأمر لحكم «صديقه الموقر»

وكرروا الدعوة إلى المعلمة مس هتشنر لتجىء فتسكن معهم . فتباهت بالدعوة ، وحدثت البلدة عنها . . فلما عرف أبوها نهرها ، وحال دون سفرها ، فدهش شللى مرة أخرى من شرور الناس . . أهو ، الذى خطف امرأته وتزوج بها زواج حب ، يجىء الآن فيخونها ؟ لقد اشمأز من هذه الفكرة

الخسيسة ، واستنكف أن تدور فى رؤوس البشر ! . .

وكان المستر هتشنر – الأب – هو أيضاً صاحب حان سابق ! . . فكأن « الآلهة » قد أرادت أن تحشد فى حياة شللى الشاعر الشفاف : نقابة الخمارين ! . .

ثم آن لشللى أن يغادر بلاد الغال ، وأشار عليه جودوين ببيت صغير لم يعجبه، ولكنه اكتشف قرية سحرية راقدة فى أحضان الزهور والأغصان ، حمراء السقوف ، تسمى : « لينموث » . . وعثر فيها على بيت للإيجار ، تشرف نوافذه على البحر . . فاعتزم سكناه « مدى الحياة » ! . .

ولم يلبث بيت « لينموث » الجميل أن تأهب ، واستعد لحادث سعيد ، هو وصول مس هتشنر ، فقد ارتضت أخيراً أن تجىء للسكنى معهم ، لتدخل فى حياة شللى لوناً من التعاون الفكرى ، والتآزر الروحى ، لا يجده فى زوجته الفتية ، التى هى أيضاً فى حاجة إلى أن تتلقن من « أختها فى الروح » هذه ثقافة تكوّنها !

ولم يلبث أهل « لينموث » أن رأوا ، مندهشين ، صاحبهم شللى يقوم ، مع تلك العجفاء الهزيلة المجهولة ، بنزهات خلوية ، طويلة !

— ١٤ —

ذبلت ورود القرية الجميلة .. وهبت رياح الخريف ،ورأى شللى أن حلمه يتبدد ، ورؤياه تتبخر ، وتكشفت له مس هتشنر عما كان خافياً عليه من غليظ الطباع . . ففقد فيها بطلته و « شقيقة روحه » . . فقرع سن الندم !

وبعد كل الذى كان منه من إلحاح وإلحاف لخلعها من مدرستها صار من الصعب الافتراق عنها وردّها على أعقابها . . بيد أن المقام كذلك معها أصبح ثقيلا لا يطاق . . واستحث جودوين شللى وأسرته على الرجوع إلى لندن . . فقرروا السفر إليها ، والبقاء فيها طويلا

وذات يوم من أكتوبر ١٨١٢ زار شللى وهارييت لأول مرة جودوين وأسرته . . وعند ما وصلا وجدا الأسرة بكاملها مجتمعة فى البيت الصغير المتصل بمكتبة شارع سكنر . وكان آل جودوين نافدى الصبر تطلعاً لوصول الزوجين الشابين . فهناك الفيلسوف « الصديق الموقر » جودوين : قصير ، سمين ، أصلع ، يتجلى ذكاؤه ، كما لو كان قساً . ثم مسز جودوين ، فى ثوب جميل من حرير أسود ، ونظارات خضراء ، لترى جلياً هذا الولد النبيل ، وارث الاوردية ، وزوج الفتاة الحسناء .. وكان

شلى قد أنذر ، من قبل ، بأنها امرأة سليطة اللسان . ولكنها بدت فى ذلك المساء رقيقة الحاشية . ثم « فانى » الفتاة الساهمة فى شجن وحلاوة . ثم « جين » الشائقة ذات الطابع الإيطالى ، سمراء اللون ، يقظة الذهن . . . وقال جودوين :

ــ لا ينقص الأسرة إلا ابنتى « مارى » ، وهى الآن فى أسكتلندا . وهى أشبه ما تكون بأمها التى ستريان الآن صورتها

وقادهما إلى مكتبه . . ونظر شلى باهتمام وتأثر إلى صورة الفاتنة مارى وولستونكرافت . ثم طفق شلى وجودوين يتحدثان فى : المادة والروح ، والأدب الألمانى ... والنساء يسمعن معجبات . ورأت هارييت شبهاً بين جودوين وسقراط ، وإلى جانبه شلى كأنه أحد مريدى ذلك الفيلسوف الأغريقى القديم !

ونشأت مودة وثيقة بين آل شلى وآل جودوين . وكثيراً ما كان جودوين يمر بالفندق ، ويصحب شلى فى نزهة ، أو تدعو مسز جودوين شلى وهارييت إلى العشاء ، وقد تدعو معهما إليز ومس هتشنر ، وقد تجازف هارييت ، من جانبها فتدعوهم ، هى أيضا ، إلى العشاء !

وفى مساء عيد ٥ نوفمبر كان شلى وزوجه يتعشيان عند جودوين . وبعد العشاء استأذن الصغير « وليم جودوين » ، وكان فى التاسعة من عمره ، ليذهب إلى جاره الصبى « نيوتن »

ليشعلا الصواريخ . وكان شللى فى تلك اللحظة يناقش « صديقه الموقر » فى إحدى المسائل العويصة ، فأيقظت كلمة «صواريخ » الكيماوىّ الخفى فيه ، فقال للصبى الصغير : « إنى ذاهب معك »

وبعد ما انتهت الصواريخ دعاه الصبى نيوتن إلى والديه . فانساق معه شللى فوجدهما مدهشين . ولم تلبث أن جرت محادثة علمية شائقة بينه وبين المستر نيوتن . وهو رجل له نظرياته التى يطبقها عملياً . وكان متحمساً لفكرة : « أن المخلوقات البشرية ، عند ما غادرت المناطق الاستوائية الحارة ، التى عاشت فيها بادئ ذى بدء ، وصعدت نحو الشمال ، اتخذت عادات مخالفة للطبيعة ، هى التى سببت كل أوجاع الإنسانية . ومن هذه العادات السيئة لبس الثياب ! » . ولذلك كان أبناؤه يروحون ويجيئون فى البيت وهم دائماً عرايا ! . . وكذلك كان من العادات السيئة عنده أكل اللحم ، وأسرته كلها نباتية تعيش على الخضر والفاكهة . ومنذ راعت هذا النظام فى معيشتها لم تلجأ إلى طبيب ، ولم تحتج إلى دواء .. وكثيراً ما كان شللى يلقى البنات الصغيرات عاريات الأجسام ، يصلحن نماذج كاملة لصنع التماثيل . . وما كان هذا كله إلا ليفتن شللى ، ويجعله من الزوار المواظبين ، فلا يكاد يحضر حتى يخف الخمسة الأحداث متسابقين إلى لقائه ، ولم يكن نجاحه لدى

أمهم وخالتهم مدام دى بوانفيل دون ذلك . . .

وفى أسرة جودوين كانت « فانى » و « جين » تقضيان السهرات الطويلة تصغيان إليه بانجذاب ، فى إعجاب بجماله ، وبقوة حجته . . وصار له فى هذه الأسرة نفوذ لا يطاول . وكان يقضى بين « فانى » الناعمة الخجول و « جين » المتوقدة الحارة الدماء أجمل سهراته ، يمتزج فيها الفكر بالاشتهاء . وكأنما عاد مرة أخرى إلى الليالى الجميلة ، التى كان فيها محوطاً بالأخوات وبنات الأعمام والعمات ، كما يحيط النحل بالقفير ..

أما هارييت فقد كانت عندهن دونه نجاحاً . ولم تلبث فانى وجين أن حكمتا بأنها فتاة محدودة ، وقالتا « مسكين شللى العزيز ! . . فليست له الزوجة التى تنبغى . . . »

وهو شعور طبيعى يخالج الفتيات إزاء الرجل الذى هو ملك غيرهن وكن يتمنينه لأنفسهن . بل لقد أشعرنه يوماً ، بأساوب وخز الإبر ، أنهن لا يرين فيها إلا « سيدة جميلة » وحسب . . فاستنكر ذلك منهن . غير أن وخز الإبر سيدمى قلب شللى مع الأيام ، وينبه ذهنه إلى أشياء لم يكن يلقى بالا إليها !

— ١٥ —

بعد ما ظل هج منفياً عاماً كاملا فى يورك اصطلح مع

أهله ، وعاد إلى لندن ، لإتمام دراسة القانون . وبينا كان يقرأ بهدوء، ذات مساء، فتح باب الغرفة، فإذا شللى ، بلا قبعة ، وصدر قميصه مفتوح ، وحشىّ المنظر ، نورانى التجلى ، أشبه بما كان دائماً : روحاً سماوياً علوياً ، نزل إلى هذه الأرض عفواً أو خطأ

ـ أخذت عنوانك من أستاذك المحامى . . بعد لأى ! . . ماذا فعلت طوال هذه السنة ؟ . . إننى عائد من إيرلندا ، حيث عملت مستشاراً عن الإنسانية لدى الكاثوليك الإيرلنديين ! . ثم قصدنا بلاد الغال البديعة . . هارييت بخير . . وهى تتوقع ولداً . . هل قرأت « بركلى » ؟ . إنى فى هذه الآونة أطالع « هلفتيوس » . . حصيف . . ولكنه جاف !

فجعل هج يتأمله بالإعجاب الحنون الساخر ، كما كان يفعل من قبل . . ليس غير شللى الذى يذكر الفيلسوف الفرنسى « هلفتيوس » منذ أول عبارة يوجهها إلى صديق غادره منذ عام ، بعد كل ما كان بينهما من خصومة جارحة

وكان شللى سعيداً ، مندفعاً بفيض أفكاره ، يفتح الكتب ، ويوجه الأسئلة دون أن ينتظر جواباً عليها ، وكأنما قد نسى تماماً أن هج قد أراد يوماً أن يثلم عرضه ! . . وظل يتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل .. وعند انصرافه قال لهج :

– أرجو أن تجىء غداً للعشاء معنا ، فسوف تسر هارييت برؤيتك . . واعذرنا لوجود مخلوقة كريهة معنا : مس هتشنر . . ولكنها راحلة عنا بعد يومين !

– مس هتشنر ؟ . . شقيقة روحك ؟ . .

– هى ! . . شقيقة روحى ! . . إنها دودة حقيرة تسعى ! . إننا نسميها « الشيطان الأسمر ! . . »

وجاء هج ، فاستقبلته هارييت مغتبطة . وقد زاد ورد محياها نضرة ، وصارت أوفر شباباً وفتنة ، وصاحت :

– يا له من فراق ! . . ولكن لن نفترق بعد اليوم ، فقد جئنا للإقامة فى لندن مدى العمر . .

وكانت إليزا جالسة فى ركن ، صامتة ، مترفعة . فصافحت هج بأطراف أصابعها ، دون أن تتنزل إلى مخاطبته

فقال هج فى نفسه : « لم يتغير بعد شىء فى هذا البيت . . فلا بد من أن ألزم فيه الحذر »

وفى تلك اللحظة دخل شاللى باندفاع القذيفة . وبسطت مائدة العشاء . وبعد تناول الطعام همست إليزا أشياء فى أذن هارييت ، فودّعت هج ، ودعته للعودة صباح الأحد :

– سيكون ذلك يوم سفر « الشيطان الأسمر » ، ويكون الحديث محرجاً . وأنت مرح ، فوجودك يؤدى لنا خدمة .

إنها امرأة فظيعة ، أرادت شللى على أن يتعلق بها . وادعت
أنه يحبها فعلا . . وزعمت أننى لا أصلح إلا لخدمة البيت . .
وقد وعدها شللى بمئة جنيه معاشاً سنوياً ، على شرط أن تذهب
عنا إلى حيث ألقت ! . .

وكان شللى يدرك جسامة التضحية بربع دخله على هذه
الصورة . ولكن لا بد مما ليس منه بد . فهذه الفتاة قد أضاعت
بسببه وظيفتها ، قال :

ـ الواقع أنها مخلوقة شنيعة ، وما دهشت قط من سقم ذوقى
إلا بعد ما قضيت أربعة أشهر معها . . والأدهى من ذلك أنها
تنظم شعراً ! . . وضعت مرثاة فى حقوق المرأة ، بدأتها بقولها :
« الكل ، الكل رجال . . والنساء كالآخرين . . . »
ثم انفجر ضاحكاً . . .

وفى صباح الأحد جاء هج حسب وعده . وبدت له مس
هتشنر مضجرة ، ولكنها غير مؤذية .. وخرج شللى .. واكتشفت
هارييت فى رأسها صداعاً شديداً يقتضى الوحدة . وحكم على
هج أن يخرج ليتنزه مع « الإليزاتين » ! .. وساروا نحو حديقة
سان جيمس

وقصرت مس هتشنر حديثها على هج . وناقشته فى حقوق
المرأة. ولزمت إليزا الصمت .. وعندما وصلوا إلى البيت قالت لهج :

– كيف استطعت أن تتحدث طوال هـذا الوقت مع هذه المرأة الشريرة ؟ . . . ولماذا شجعتها على المضىّ فى حديثها ؟. إن هارييت عند ما تعلم بالأمر ستغضب منك ، وتستاء كثيراً !

وبعد الغداء وجه هذا الرجل الخبيث الحديث إلى حقوق المرأة ، وأطلق البطلة المسترجلة من عقالها . فوقف شللى إلى جانبها يناقش بحدة . ونظرت إليه الشقيقتان بحزن وجزع ، كما لو كان مذنباً أثيما لاتصاله بالعدو .. وهمست إليزا فى أذن هج :

– آه ، لو علمت كم هى قذرة لما دنوت منها ! . .

غير أن ساعة الخلاص جاءت ، فحملوها وصناديقها على عربة إلى منفاها !

– ١٦ –

كانت الشهور القليلة التى تلت رحيل مس هتشنر من شهور السعادة . وكان شللى وزوجه ما زالا فقيرين ، جوّابىْ آفاق ، ولكن رضاء داخلياً عظيما قد حل عندهما محل الغنى والبيت والحمى . . فقد بدأ شللى نظم ملحمة كبرى بعنوان « Queen Map » . وجعله العمل فيها يستشعر أن الحياة ما زالت خليقة بأن يحياها الإنسان . وكانت هارييت حاملا . وغمرها استرخاء لذيذ ، شبيه بالخدَر ، جعلها تستبقى كل قواها لعملية

الخلق ، ولا تشعر بالضجر لجمود حركتها ، مادام فى باطنها ، يعزيها ، نشاطُ التكوين ، الذى لا يلبث أن يتمخض بالولد

وأقاما خلال هذا الطور مدداً قصيرة فى بلاد الغال وفى إيرلندا . وبدأت هارييت تدرس اللاتينية ، مرضاة لزوجها . وكان يدرسها لها على طريقته ، بلا أجرومية ، ماضياً بها رأساً فى مطالعة « هوراس » و « فرجيل » . . وكان فى خلال ذلك أيضاً ينظم ملحمته ، أو يقرأ كتب التاريخ . فقد قال له جودوين إن جهله بالتاريخ هو من أعظم أسباب أخطائه فى الحكم على الأشياء . وفى المساء تغنى هارييت ، أو يطالعان معاً الصحف ، ويتتبعان أخبار المحكوم عليهم من الكتاب الأحرار الذين كان شللى يكتب إليهم ، دون أن يعرفهم ، يعرض عليهم أن يدفع عنهم الغرامات المحكوم بها عليهم بسبب آرائهم ، وكان لذلك يستدين بأرباح فاحشة ، تبلغ أحياناً أربعمئة فى المئة !

وآنت العودة إلى لندن ، إذ حان وضع هارييت ، وكذلك بلوغ شللى سن الحادية والعشرين ، وهو تاريخ غاية فى الأهمية بالنسبة له ، إذ يحدد علاقاته بأبيه

وسكنا فندق كوك ، فى غرفة ذات شرفة مطلة على شارع ألبمارل . وكانت إليزا تعنى بشقيقتها وتدرس لأختها سياسة الزوجية :

ـــ من عجب ألا يستطيع زوجك أن يجد سبيلا إلى الصلح

مع أبيه ، حتى تستقبلك أسرته ، وتأخذى فى أسباب الحياة اللائقة بقرينة « البارون » الشاب ! . . ولو أنك كنت أكثر مما أنت فطنة وإقناعاً لكان لك شأن آخر ! . وأنت لا تلبثين أن تنجبى ولداً . وهذه الحياة المزعومة أصبحت مستحيلة لا تطاق ، فلا غنى لك عن بيت فى لندن ، فراشه وثير ، وخيره كثير ، وأوانيه من فضة ، وبالباب مركبتك . . هذا كله وأكثر منه يمكن أن يكون لو أراد شللى . . .

وتأثرت هارييت بهذه الأقوال ، وآمنت . فقد كانت امرأة ساحرة الجمال ، وكانت تعرف ذلك ، والمرأة الجميلة تعد الحياة بلا ترف صعبة لا تحتمل ، كما يعد الرجل الذكى نفسه مغبوناً فى وظيفة حقيرة . . . وكانت نظرات المارة التى تتعلق بها تحدثها عن مدى سلطانها . وكانت تعلم جيداً أن هذا السلطان سريع الزوال ، ينقضى بانقضاء الشباب والجمال . . ومثل الأمة المسلحة تسليحاً قوياً ، تريد أن تكفل لنفسها مكانتها تحت الشمس ، قبلما تسرّح جيوشها : مثل المرأة المسلحة بجمالها ، تريد أن تغزو عدوها الرجل ، أو توطد علاقاتها به ، قبلما تدهمها الشيخوخة . وظلت هارييت ، ومن ورائها إليزا تنفخ فيها من روح التمرد والتمرمر ، تلح على شللى ، حتى قرر محاولة التقرب ، من جديد ، من أبيه . وكان كذلك فى شوق لرؤية

أمه ، فكتب إلى والده يعترف بحماقاته ، ويرجو أن تعود الصلات بينهما بثقة تامة ، ولم ينس أن يضمن رسالته تحيات قرينته

فاشترط أبوه لذلك أن يكتب شللى إلى جامعة أكسفورد آسفاً لحدوث ما حدث منه ويعدها بأن يكون باراً بالكنيسة

فاشتكى شللى والده إلى الدوق دى نورفولك . ولكن إليزا عدّت هذا العناد منه سخيفاً :

– وعلى ذلك فإن هارييت ، وهى تكاد تضع ، لا تجد حتى مركبة توفر عليها الجرى فى شوارع لندن على القدمين ؟ . .

فاستشاط شللى غيظاً ، واشترى عربة بالدين ، وأبى استخدامها ، فقد كان يؤثر النزهات الطويلة مشياً فى شوارع لندن يتحدث مع هج . . وكان عندما يضيق بإليزا يلجأ إلى بيت جودوين حيث « فانى » و « جين » تستقبلانه بأذرع مفتوحة ، أو بيت نيوتن حيث الحنان والذكاء والرقة وحسن المعاشرة ، تسمعه مسز نيوتن أنغامها الشجية على البيانو ، وهو جالس على البساط مع أولادها الذين زهاهم الحسن ، يروى لهم حكايات الأطياف والأشباح . .وتجىء أختها مدام دى بوانفيل ، وكان شللى يميل إليها ، فقد اجتمعت فيها وأختها استنارة الذهن ودماثة الطبع ، وهذا فى المرأة خلاصة الحضارة . . ومن ثم وجد فى بيتهما أقصى ما يتمناه من هناء الروح . وكانتا

تقولان عنه : « أى شىء أبدع وأروع من قديس فى ثياب رجل المجتمع الراقى؟ ! »

وكان هج يغبط صديقه شللى على مناورات كل هؤلاء النسوة الفاتنات الذكيات من حوله ، وانكبابهن هكذا عليه ، وإحاطتهن به ، ينازعن فيه فتيات جودوين ، ويزاحمنهن عليه !

وقد يمضى الليل وشللى يتحدث بحمية ، وكأنما هو الإله الجميل « أدونيس » ، المحوط بالعذارى المسحورات ، والكاهنات العابدات ، والنساء الفاتنات . وقد يطلع الفجر عليه وهو ما زال يحاورهن . . ولا ينتهى الحوار بالنوم ، بل ينتهى هذا الحديث فى الليل بنزهة خلوية ، تحت ندى الصباح . . .

وكان هج يتساءل : ماذا كان يقول طوال ليله فى نادى الجمال ؟ . . إن شللى نفسه ليس يدرى ! .

وكذلك كانت هارييت تتساءل عما يمكن أن يقوله زوجها لكل هؤلاء النساء .. وكانت على وشك الوضع ، فهى لا تخرج مطلقاً . .

— ١٧ —

وضعت هارييت طفلة ذات عينين زرقاوين وشعر من ذهب . فدعاها أبوها « إيانتا : Iantha » ، تكريماً لذكرى

« أوفيد » شاعر اللاتين القديم . وأضافت أمها إلى الاسم :
« إليزا » ، تكريماً لأختها

وكان شللى يدور بالطفلة على ذراعيه ، وهو يهزها ، ويغنى لها من أشعاره ! وكان قد طاب نفساً ، وقرّ عيناً . بأن يربى مخلوقاً جديداً على مبادئه ، فينقذه ، منذ نعومة أظفاره ، من الأحكام المبتسرة والتعصب. وكان — وهو المعجب بچان چاك روسو — يظن أن هاربيت سترضع بنفسها طفلتها . بيد أن هاربيت ، وأختها من ورائها تحرّضها ، قد رفضت إرضاع بنتها. فاكترت مرضعاً لتتولى ذلك عنها ، وتغيرت الأم ، على وجه غريب ، منذ مولد « إيانتا » . فانقطعت عن دراسة اللاتينية . . ولم تعد ترغب فى غير التنزه والوقوف أمام واجهات الأزياء والجواهر . . وكان شللى لا يغتفر مثل هذا التهافت . وكان على استعداد ليدفع تكاليف كل النزوات « المعقولة » لامرأته ، أما المال «الضرورى جداً !» لإعانة الكتاب الأحرار المضطهدين ، وغير ذلك من الوجوه الحقة ، فإن إنفاقه فى خرق ثياب وشرائط برانيط أمر أشد ما يكون خزياً !

وعندئذ عنيت إليزا بتفسير مشاعر شللى لهاربيت :

— إن زوجك يجد المال ليدفع ديون صاحبه جودوين الذى تستقبلنا زوجته شر استقبال . . ثم يجد المال ليدفع غرامات كل

كويتب « صعلوك » . . ولكنه لا يجد مالا لتلبس امرأته ثوباً على جسمها ، وقبعة على رأسها ! . . وإذا كنت لا تلبسين الآن وتظهرين ، فى الثامنة عشرة ، فمتى تفعلين ؟ . .

وشجعت إليزا على التردد على البيت ضابطـاً فى الجيش يدعى : «الكابتن ريان» ، تعرفوا به فى إيرلندا ، وكان يرى أن شابة شائقة مثل هاربيت جديرة بحياة مترفة . وكانت هاربيت مستعدة للمصادقة على رأيه . ترى أنها ، إذ تتردد على محال البيع والشراء ، تلبى ميلها وطبعها ، كما يلبى شللى أهواءه بالمكث الطويل فى بيت « نيوتن — بوانفيل » !

ورأى شللى أن المقام فى لندن كان سبب الشر كله . فخالجته الفكرة التى تعرض عادة للمحبين إذا ما عكر صفوهم شىء ما زال غامضاً ، وهى زيارة الأماكن التى شهدت ذروة الحب . . وأعدت مركبة هاربيت . . واستلف شللى خمسمئة جنيه بتوقيع سند بألفين من الجنيهات تستحق الدفع من ميراثه . وسار الركب يحج إلى إدنبره ، وإليزا — التى لا مفر منها — على رأسه

وعادوا أسعد مما سافروا . ولكن لم تكد تستقر بهم النوى ، حتى أصرت هاربيت وإليزا على شقة جميلة ، وثياب فاخرة ، ومجتمعات راقية ! . . وشللى يمقت هذه جميعاً ، ويمقت ، أكثر منها ، فكرة تعلق زوجته بها . . إنه ما زال يحبها ، غير أن سماء

حبه قد عبرتها لمحات احتقار ، كومضات برق سريع خلّب !

وجاء هج لزيارتهم . فوجد هارييت أشد فتنة ونضرة . ولكنها لم تكن تعرض عليه أن تطالع له فى كتب الفضيلة ، بل سألته أن يصحبها إلى صانعة قبعات ذائعة الصيت . . وهناك اختفت عندها ، تاركة هج ينتظر على الرصيف . فرأى أنها بدأت تكون مملة ، فضاق بها . . ولم يخف ضيقه بها عن شللى ، الذى كان كذلك قد عيل صبره !

وهكذا وصل الزوجان إلى منزلق خطر !

* * *

عندما دعت مدام دى بوانفيل شللى وهج لقضاء بضعة أيام فى بيتها الحاوى فى « براكنل » لبيا بابتهاج . وهناك وجدا بنتها « كورنيليا » ، الفتاة الجذابة ، المثقفة ، الحزينة . . كما وجدا أختها « مسز نيوتن » . . وأخذت كورنيليا تعطيهما دروسا فى اللغة الإيطالية . . وكانت أمها تفسر بصوتها النقى تعاليم الفلاسفة الفرنسيين السمحة ، وتردد كلمة « شمفور » : « أن تستمتع بالحياة ، وأن تمتع بها سواك ، دون أن تسىء إلى إنسان ، هذا هو الخلق المصفّى ! » . . وكانت هذه الكلمة خليقة بأن تثير استنكار شللى . . فالمسكينة هارييت لم تقل قط شيئاً مخالفاً إلى هذا الحد للفضيلة

وكان من عادة كورنيليا أن تردد كل صباح أنشودة من أناشيد « بترارك » . . فإذا ما خرجت لتتمشى بين الشابين فى الحديقة علّقت على نصوص الحب ، بفصاحة ، وبساطة ، قائلة :

ـ ما أحسن أن يُستهل النهار بجرعة من الحنان ، تلطف كافة أفكارنا ، وأقوالنا ، وأفعالنا ، حتى يجىء الليل ! . .

وطاب مقام شللى فى هذا البيت البسيط البهيج ، ودعيت هارييت ، واستقبلتها مدام دى بوانفيل بعطف . وقالت لهج :

ـ إنها إنسانة جميلة جداً ، وقد تلوح لى طائشة نوعاً ما ، غير كفء لمثل عزيزنا الفيلسوف اللذيذ . . ولكن . . أليست فى الثامنة عشرة تماما ؟ . .

وأحست هارييت بأنهم لا يعاملونها معاملة الند للند . ورأت كيف يروق شللى أن يقرأ « بترارك » مع كورنيليا أكثر مما تروقه المناقشة مع زوجته فى وسائل تحسين معيشتهما . فأسرفت فى المرح ، وعدم الاكتراث . ولما طفقت الجماعة تجادل فى الفضيلة جدالا حاراً رآها شللى تتبادل البسمات الساخرة مع هج ، ومع پيكوك ، وهو صاحب جديد لهم ، سفسطائى متشكك. وما كان شللى ، إذا تسامح فى تهكم هج ، ليتسامح فى تهكم امرأته . فوجم وحزن . . وعزا ذلك منها إلى الصبيانية . . وكانت غيرى من كورنيليا . فأبدى لها شللى فتوراً ، وعاملها بازدراء !

وعندئذ تسلحت بالكبرياء ، وانقلبت شراً مما كانت . وقالت لنفسها : « إن إليزا على صواب . . فهو أنانى ، يدّعى الكمال . . ألأنه يحب هذه العيشة الكئيبة والمناقشات البليدة يريد أن أحبها ؟.. بأى حق يحول بينى وبين أن أستمتع بحياتى ؟ وفيم تمتاز عنى كورنيليا ، إذ تطالع له « بترارك » ؟ ! . إن هؤلاء النسوة ، اللواتى يعجب بهن ، لسن فى نضرة شبابى ، ولا فى جمال صورتى »

وأعلنت عزمها على العودة إلى لندن ، شوقاً إلى أختها إليزا . . فلم يلحوا عليها بالبقاء . . وقالت نساء بوانفيل ما قالت من قبل آنسات جودوين : « إن شللى المسكين ، ليست له المرأة الجديرة به » !

وتعودت هارييت أن تتركه فى « براكنل » . وتعيش فى لندن مع إليزا .. ولم يلبث شللى أن أخبره « الأصدقاء الخلصاء » بأن هارييت كثيراً ما تشاهد بصحبة الماچور ريان . ولأول مرة ، منذ زواجه ، لاح له أن الخيانة شىء محتمل الوقوع بالنسبة لشخصه وشخص هارييت ، وطغى عليه عذاب أليم !

وكان العقل ينصحه بالخلاص من امرأة عادية جداً . بدت نقمتها الوضيعة بما أظهرت من سخرية به ، وإذا لم يكن بعد يحبها ، أو ليس الفراق هو أبسط الحلول ؟ أو لم يكن من رأيه دائماً : أنه فى اليوم الذى ينطفىء فيه الحب يسترد كل من الزوجين حريته ؟ .

غير أنه اكتشف أن هارييت وستبروك ، وپرسى شللى ، لم يعودا مخلوقين منفصلين حرّين . فإن ما كان بينهما من ذكريات ومن متاعب وآلام ، قد ربطهما برباط خفىّ

فهرع إلى لندن يقدم إليها اعتذاراته ، ويعترف بأخطائه . ولكنها تلقته بخشونة وسخرية ، فاستحالت بينهما كل مطارحة قلبية !

ومرت بشللى لحظات رأى فيها ، من وراء قناع الجفاء والكبرياء الذى تقنعت به هارييت ، صورة سريعة عابرة من هارييت السابقة ! . فراح يهيم على وجهه مفكراً : « كم كنت مجنوناً ! . . فقد ربطت نفسى للأبد بامرأة لا تحبنى ، وهى لم تحببنى قط من قبل . إنها لم تتزوجنى إلا طمعاً فى ثروتى واسمى . . أما وقد رأت أن آمالها خابت فقد انقلبت تعاقبنى على غلطتها ، وتنال منى . . » . . وكرر لنفسه باشمئزاز : « قلب من ثلج . . . لوح من ثلج ! . . »

لو أنه لقيها وحدها لأذاب ثلجها ، ورد إليها حرارة قلبها . ولكن إليزا كانت واقفة دائماً بينهما ، والماچور ريان ، الكيّس الكريم ، مستعد لأن يرق حيث يقسو الزوج !

فلما رأى شللى أن هارييت ممعنة فى صلابتها وعنادها سقط فى يده ، وكتب إلى أصحابه فى براكنل يعلن حضوره لقضاء شهر عندهم من دونها . . وكان يعلم أن هذه الفترة الممتعة

ستعقبها نكبة قارعة ، لا بد واقعة . . ولكنه كان من الضنى والكلال بحيث ألقى السلاح !

— ١٨ —

وتمر أيام على شللى ، يتذكر فيها المحيّا الطفل الجميل ، الذى وهبه الله لزوجته ، فحاول ، فى قصيدة حزينة تثير الشجون ، أن يطلعها على مبلغ شقاوة ذاك الذى عاش تحت شمس نظراتها الحارة ، كيف لا يجد بعد إلا الفناء تحت طبقات الجليد ، التى راكمها فوقه صدودها !

ولكنها زادت بعداً على بعد ، وصداً على صد ، وأمعنت فى تعاليها وكبريائها ، وما كاد يعود إلى لندن حتى غادرتها إلى بلدة « باث » !

وكان شللى مضطراً إلى الإقامة فى المدينة . فقد بلغ سن الرشد ، وأنذره محاميه بأن أسرته قد ترفع عليه الدعوى لتجريده من حقوقه . ومع أنه كان مغرقاً بالديون فقد أصرّ على تخليص جودوين من ديونه بعد أن فشلت مكتبته ، وكان يلزم لإنقاذه ثلاثة آلاف من الجنيهات الإنجليزية ! . .

فما كاد جودوين يعرف ذلك حتى تهافت على تلميذه الذى أصبح « أعزب » فى لندن ، و « نصفه الأفضل » فى

الريف إلى أجل غير مسمى . . فصار يدعوه للعشاء كل ليلة

وكان شللى يتقبل الدعوة لكى يرى البنات . . . وقد أخبره جودوين أنه سيلقى « مارى » التى عادت من أسكتلندا ، ورسمها له فى صورة جميلة : سبعة عشر ربيعاً ، روح حى جذاب ، وعقل مستنير ، وخفة ، ورشاقة ، وهمة ، ورغبة شديدة فى المعرفة ، ومثابرة لا حدّ لها . . وكانت « فانى » و « جين » قد سبقتا فوصفتاها له بأنها لا يعدل ذكاءها إلا جمالها . وكان قد سبق له الاطلاع على أدب أمها « مارى وولستو نكرافت » ، وحمل لها أشد الإعجاب

كان فى حاجة إلى أن يجسّد فى شكل امرأة جميلة : القوى الخفية الخيرة ، التى يتخيلها مبعثرة منثورة فى أرجاء الكون . . . وكان الحب ، عنده ، إعجاباً هائماً ، وإيماناً وطيداً ، ومزيجاً شائقاً كاملا من الاشتهاء ، ومن الفكر والذكاء . . .

وكانت مارى هى التى ينتظرها . . فتقرر مصيره

كان المحيّا نقيـاً ، شفافاً ، فى شحوب . . والشعر يتدلى على جانبيه ، فى غدائر ناعمة ، كسبائك ملتوية من ذهب . . والجبين مرفوع . . والعينان بلون البندق ، جادّتان فى حنان . . وهناك الذكاء الثاقب ، والإحساس المرهف ، والبسالة الحزينة

فأوحت إليه ، ونفخت فيه

قال لنفسه وهو يصغى بانجذاب إلى صوتها الفتىّ الشجى :
« يا للجد ، ويا للحس ! . . » . . فتاة ، هى تحفة الفن العليا

وود لو أسرع فحملها بعيداً ، محلقاً بها ، على جناحيه ، إلى مملكة سحرية غريبة ، فيما وراء الطبيعة ! . .

ما أبعد مارى هذه عن هارييت ، تلك التى لم تعرف كيف تحقق له هذا المثال ، الذى يؤلف بين العقل والجمال . . ولم تستطع اجتياز امتحان الزمان العسير .. فكانت مدللة ، طائشة ، بارعة فى مكائد النساء !

أما مارى فرقيقة ، مرهفة ، ماضية حادة كالسيف المهنّد المصقول . . رباها مؤلف « العدل السياسى » . . فتحرر عقلها من خرافات النساء

وكان شللى يقضى الساعات يتأمل . . .

وكانت على استعداد لأن تحبه . فالتحضير الرومانتيكى لخيالها قد قامت به أخواتها اللواتى ظللن شهراً كاملا لا يحدثنها فى رسائلهن إلا عن شاعرهن الجميل . . وها هى ذى ترى أن الخُبر يفوق الخَبر . ومع أنه لم يكن يشكو فقد أحست حزنه !

وذات مساء حدثته بشجونها . فهى تعبد أباها ، ولكنها تمقت زوجته . والمكان الوحيد الذى تستريح إليه هو قبر أمها ، تذهب إليه كل يوم تطالع عنده ، وتتأمل . .

ومرة أخرى ، بعد خمس سنوات ، رأى شللى نفسه جاثياً فى مقبرة إلى جانب عذراء جادة مولعة . . . وهكذا تجسّد معبوده ، مرة أخرى ، فى شكل امرأة ! .. لكنه لم يعد حراً . لقد كان متزوجاً ! ولا مراء فى أن الزواج ليس إلا ُعرفاً ، فمن لم يعد يحب فلينطلق من إساره . وهو لم يَعِد هاربيت بشىء غير هذا . وهو يظنها صارت خليلة للماچور ريان ، فهو لا يتحرّج من شىء إزاءها ! غير أن زواجه كان شرعاً لا يمكن التحلل منه . . فماذا عنده ليقدمه إلى مارى ؟ . . أفى مقدوره أن يرضى لها ذلك الوجود المستهجن ، الذى لم يشأ أن يفرضه على حبيبته الأولى ؟

على أن حباً متبادلا ، ولو كان بلا رجاء ، هو خير من : الشك ، والوحدة ، والحرمان . فكاشف مارى بحقيقة حياته الزوجية ، فوصف لها ما أصابه من الخيبة الروحية فيها . وكان بحاجة إلى رفيقة تشعر بالشعر ، وتدرك حكمة الحكماء . . وما كانت هاربيت لتستطيع هذا ولا ذاك !

وأهدى إلى مارى نسخة من ديوانه . وكان الديوان مهدى إلى هاربيت « ملهمة هذه الأغانى » . . فكتب تحت هذا :

« كان الرجل يوشك أن يتزوج امرأة ، لم تنجذب نحوه إلا من أجل ثروته ، فبرهنت على أنانيتها ، بالتخلى عنه ، وهجره فى سجنه »

ولما عادت مارى ، واختلت بنفسها ، أضافت :

« . . . لا أستطيع أن أكون لك ، ولن أستطيع أن أكون لسواك ولكنى لك وحدك ، لا شريك لك : بالقبلة الصامتة ، والنظرة المختلسة ، وبالابتسامة التى تراها ولا يراها الناس . إننى وهبتك نفسى . . والعطاء مقدس » . . .

هذه النظرات التى لا يراها أحد ، وهذه الابتسامات التى لا يفهمها أحد، قد رآها جودوين ، وفهمها . . وأخذه القلق ! فطلب إلى ابنته أن تكف عن لقاء شللى . وكتب إليه ينصحه بأن يصالح زوجته ، وسأله أن يكف عن زياراته !

كان هذا عاملا على استعجال الحوادث ..فقرر شللى، الهائم بمارى ، المحروم منها ، أن يضع لذلك حداً . وكان رغم تأكيدات صاحبيه پيكوك وهج يصر على أن هارييت مذنبة!

قال لنفسه: « إن شيئاً واحداً يهمها: المال . . . وسأكفل من هذه الوجهة مستقبلها . . وتسترد حريتها » ! . .

ودعاها إلى لندن وأخبرها بنيته فى هدوء وعطف . وكانت مريضة فى حمل لأربعة أشهر ، فضاعفت الصدمة مرضها ، واشتد الخطر عليها . . فسهر شللى على معالجتها ، وتفانى فى خدمتها ، فزادت شقاء

وما كادت تتماثل حتى استأنف محاجته التى لا تلين :

ــ إن اتحاد الجنسين مقدس ، طالما هو يشمل الزوجين

بالهناء ، وهو ينحل طبعاً من تلقاء نفسه ، بمجرد ما يزيد ضرره على نفعه !

فضاقت الدنيا بهارييت ، ولم يكن لها بد من جواب تجد به مخرجاً ، ولكنها لم تجد ما كان ينبغى أن تقوله .. فحلمت بأنها تتخبط وسط جدران عالية غير منظورة ، مطبقة عليها ، كمن يتخبطه الشيطان من المسّ . .

وسخطت على مارى . إنها هى السبب فى هذا كله ، أخذت شللى من زوجته ، واستغلت تعلقه بالخيال ، واستخدمت ذكرى أمّها فى لعبة شائنة !

ولم تشعر مارى بذرة من الشفقة على هارييت . فصورتها فى أبشع صورة : « إن امرأة كان من سعدها أن اقترنت بشللى ، فقصّرت فى إسعاده ، لا يمكن أن تكون إلا مخلوقة أنانية ، طائشة ، خاملة » . وكانت تعلم أن شللى سيعامل هارييت بسخاء وأنه سيصدر أمراً إلى وكيله ليدفع لها أكبر نصيب من معاشه ، وهو ما يريح ضميرها . . وقالت : « سيكون لها المال ، وهو كل ما يعنيها »

وكان شللى فى حالة يرثى لها من الهياج العصبىّ . إن نوعاً من العبث العاطفى قد أثار فى نفسه مشاعر متضاربة . فلما رأى هارييت تسقط فى هوة من اليأس والقنوط لم يستطع أن ينسى

يوم كانت رضيـّة ممتعة . ولكنه لم يكد يعود فيلقى مارى حتى عبد منها : لطفها ، ورقتها ، وجدّها . . ولكى يهدئ من ثائرته ساعة أو بعض ساعة تعاطى خلاصة الأفيون ، وزاد فى تعاطيها يوماً عن يوم . . وأظهر صاحبه بيكوك على الزجاجة قائلا : « إنها لا تفارقنى أبداً »

وكان يردد بلا انقطاع قول سوفوكليس : « يا ليتنى ما وجدت فى هذه الدنيا ، ولا اكتحلت عيناى بنورها ، إذن لكنت أكون من المسعدين . . أما وقد طلع علىّ النهار ، فما أحرانى بأن أعود من حيث جئت . . لا ألوى على شىء . . »

– ١٩ –

أوصى شللى بعربة السفر للساعة الرابعة صباحاً . وظل ساهراً متربصاً ، سواد الليل كله ، أمام بيت جودوين . وأخيراً فتحت مارى الباب الخارجى ، قليلا ، بلا صوت ، وهى فى ثياب السفر . وكانت أختها « جين » تتحدث معها بصوت منخفض مشرفة على الحقائب باهتمام !

وتعبت مارى من السفر المتواصل الطويل ، غير أن شللى لم يجرؤ على التوقف ، خشية أن يكون جودوين فى أعقابهم . ثم بلغوا فى نحو الساعة الرابعة مساء ميناء دوفر ، وعبروا المانش إلى كاليه فى مركب صغير

وكان مساء جميل . ورأى الهاربون أنهم نجوا ، وصاروا فى أمان . وكانت مارى قد اشتد بها المرض ، فقضت الليل مضطجعة على ركبتى شللى ، يسند رأسها على كتفه ، ويعنى بها جهده . وغاب القمر وساد الظلام التام ، فانطلقت زوبعة هوجاء ، كان برقها الراعد يضرب بالسياط وجه البحر الأسود الماء ، فتثور مياهه ، وتنتفخ ، وتفور . وأخيراً بزغ النهار ،

وصحا الجو ، وطاب الهواء ، وطلعت الشمس وردية شقراء على فرنسا
وانتعشت مارى من سباتها ، وقضوا يومهم فى خان ، حتى وصلت سفينة بريد دوفر حاملة حقائبهم وحاملة معها أيضاً مسز جودوين ، جاءت لتقنع ابنتها « چين كليرمون » ، على الأقل ، بالعودة معها . غير أن فصاحة شللى فازت بها . وعادت مسز جودوين وحدها
وفى الساعة السادسة غادر المسافرون كاليه إلى بولونى فى مركبة تجرها ثلاثة خيول ، تجرى خبباً . . .
وكانت خطتهم تقضى بالذهاب إلى سويسرا ، ولكن بضعة أيام فى باريس أتت على ما فى كيس نقودهم . وكان معهم خطاب لرجل أشغال فرنسىّ ، يدعى « تاڤرنييه » ، ليحصل لهم على مال . ورهن شللى ساعته وسلسلتها لقاء ثمانية بنتوات ذهبية ، كفلت لهم الطعام خبزاً وجبناً خمسة عشر يوماً ، وفى آخر الأسبوع قبل تافرنييه أن يقرضهم ألفا ومئتى فرنك ، وهو دون ما يكفى نفقات السفر فى مركبة البريد ، فقرروا الرحيل على الأقدام ، وشراء حمار لحمل العفش وركوب مارى . فذهب شللى إلى سوق البهائم ، وعاد إلى الفندق بجحش صغير . وفى الصباح التالى استقلوا عربة إلى أبواب شارنتون على الحدود ، والجحش يتخبط سعياً وراء العربة !

وبعد بضعة أميال تعثر الجحش من التعب ، فاضطر شللى وجين إلى حمله ! . . وفى القرية التى باتوا فيها باعوه إلى فلاح ، واشتروا بدلا منه بغلة ! . وكانت آثار الحرب والدمار بادية على البلاد ، فالقرى خربة ، والبيوت بلا سقوف ، والجدران المهدمة سوّدها دخان النار ، وكانت الأسرّة فى النزل الحقيرة قذرة ، والفئران الهائلة تصول وتجول حولهم فى الظلام . فاختاروا النوم فى مطابخ القرويات !

وتساءلت مارى بقلق عما يمكن أن يكون قد أصاب أباها ألماً من هربها . .

وكان شللى مشغول البال على مصير هارييت ، فكتب إليها خطاباً طويلا يسألها أن تلحق بهم فى سويسرا لتسكن بقربهم !. وستجد فيه على القليل صديقاً لا تشوبه من الأنانية شائبة . ورأى من الطبيعى أن يطمئنها على صحة مارى !

ولم ترد هارييت على الخطاب

ووصلوا من نيوشاتل إلى منطقة البحيرات . وأراد شللى الاستقرار فى « برونن » قرب معبد غليوم تل ، المدافع عن الحرية . وكان البيت الوحيد الخالى هناك : قصراً عتيقاً مهجوراً كالطلل البالى ، فاستأجروا فيه غرفتين لستة أشهر ، واشتروا أسرّة ، وكراسىّ ، ودواليب ، وموقداً . وبدأ شللى فى يومه

قصة كبرى : « السفاحون The Assassins » ، كأنه قد طاب مقامه ، واستقرت أيامه ! . .

بيد أن الموقد الجديد لا يشتعل . والحجرة مثلجة ، ممتلئة منه دخاناً . ومن الخارج المطر يضرب زجاج النوافذ بسياطه الرفيعة . ووجدوا أنفسهم فى وحدة موحشة . فتذاكروا حديث بيوتهم الإنجليزية الجميلة ، والشاى الإنجليزى الساخن الزكى ... والجو الإنجليزى الملبد بالغيوم ، وهو مع ذلك لا يخترم برده الصدور . . والرجال الإنجليز الذين يتكلمون بلسانهم ويعرفون نطق أسمائهم .. حتى المرابون الإنجليز مجاملون ، وإن كانوا ينهبون

وأحصى شللى ما بقى لهم ، فلم يجد إلا ثمانية وعشرين جنيهاً !

ــ فلنعد إلى بلادنا ! . .

لم يكد شللى يقول ذلك حتى قر قرارهم على الرحيل ، وأحسوا بالفرح والمرح . وقالت جين :

ــ يا للمضحكات المبكيات : أهكذا نغادر ، بعد ثمان وأربعين ساعة ، الغرف التى استأجرناها لستة شهور ، وأثثناها بمالنا ! . . لقد زعمت إذ رأيت صخور دوفر تبتعد عنا ، والشاطىء الإنجليزى يختفى ، أننى لن أعود فأرى من ذلك كله شيئاً . . . والآن . . .

وفى الصباح التالى حملهم مركب إلى لوسرن . ومن لوسرن

بلغوا بال ، ثم كولونيا . وفى المساء غنى البحارة تحت ضوء النجوم أغانى الهوى . . وشللى يعمل فى قصته « السفاحون » ، ومارى وجين ، كلتاهما تبدأ فى وضع قصة جديدة أيضاً !

ثم حملتهم مركبة البريد الهولندية إلى روتردام ، فوصلوها وليس فى كيس نقودهم دانق واحد ! . . وبعد مناقشات طويلة مع قبطان إحدى السفن قبل أن يحملهم معه . . وقطع شللى الرحلة بطولها وهو يناقش أحد الركاب فى مسألة النخاسة والرقيق . وأيدته مارى وجين وهما تجهلان تماماً ماذا تأكلان غداً ، وإن كانتا تعلمان أن برسى شللى عبقرىّ ، وأن الإنسان حيوان ، ينشأ ، ويتقدم ، ويرتقى . . . وقد يكمل ! . . .

— ٢٠ —

عندما وصلوا لندن لم تكن معهم أجرة العربة التى أقلتهم . فاتجهوا بها إلى المصرف . وهنالك علم شللى أن هارييت قد سحبت رصيد حسابه ! . . فذهبوا بالعربة لمقابلتها . . فظنت أن زوجها قد عاد إليها . . ولكنها استنكرت وسخطت عندما علمت بأن غريمتها واقفة بالباب . . . ومع ذلك أقرضت شللى بضعة جنيهات ، مكنت الجوّالين الثلاثة من سكنى بعض الغرف المفروشة الحقيرة !

ورفضت أسرة جودوين استقبال العصاة الهاربين . وترافع شللى ، مدللا بأنه إنما طبق مبادئ « العدل السياسى » . . ولكن ما كان هذا إلا ليزيد فى ثورة جودوين وسخطه فقد كان « العدل السياسى » عنده كتاباً نظرياً لا يمكن تطبيقه فى وسط مجتمع محافظ لا يرحم ، وفى ذات بيته ، وبين أفراد أسرته ، وفى أعز شخص لديه ، وأكثر من ذلك كله تحريف آرائه ، وقلب مبادئه .. لا ، ثم لا .. إنه لن يصفح عنهم أبداً !

كان شللى قد استدان مبالغ طائلة جداً ليقرضها لوالد مارى ، فما كاد المحضرون يعلمون بعودته حتى بدأوا فى مطاردته واضطهاده . ولم يكن جودوين ، إزاء شللى ، عاجزاً عن السداد فقط ، ولكنه كان فى حاجة إلى مبالغ جديدة منه !

وكانت هذه المسائل المالية هى التى أرغمته على المضى فى مراسلة شاب خائن فاجر . . وكان ضميره يعذبه كثيراً لهذا الاضطرار . . أو على الأقل كان هذا ما يقوله فى كل خطاب !

وكانت هذه المراءاة من رجل طالما أعجب به شللى ، وعبدته مارى ، سبباً فى حزنهما ، فكانا يقولان ، وهما يتنهدان :

« آه منك أيتها الفلسفة ! . . »

أما مسز جودوين فقد كانت ناقمة عليهما لأنهما أفسدا عليها بنتها التى ليست من جودوين ، وحظرت على «فانى» اللطيفة

أن تزورهم . وذهبت هى مرة واحدة لترى « جين » ، فلقيت شللى فى السلم ، فلوَت عنه رأسها ، وطوت كشحها ! . .

وكانت العلاقات بهارييت تارة سهلة ، وتارة صعبة ، تبعاً لتقلبات طبعها . ولم يكن ينقصها شىء ، وما زالت لديها فضلة من مال شللى ، غير المعاش الذى أجراه عليها الخمار العجوز . . ولكنها كانت حاملا ، أشقى ما تكون . . .

وكانت صاحباتها يقلن لها إن لفحات الهوى قصيرة الآجال سريعة الزوال . وإن زوجها سوف يعود إليها . وعندئذ يستخفها الرضا . وتكتب إلى شللى خطابات ودية . وكانت تعتقد أن مارى هى أسّ الشر ، وقد سحرت برسى بما تقصه عليه من حكايات خرافية .. وهو فى الواقع طيب القلب ، ولن يهجرها ومعها طفلاه

وكانت أحياناً تعصف بها نوبات حزن وسورات غضب ، فتحاول أن تزيد فى متاعب الشخصين الممقوتين : فتستدين ، وتبعث بالدائنين إلى شللى . وتروى للناس أنه يعيش عيشة الخنا مع فتاتين من بنات جودوين . وتذهب لتلقى دائنى جودوين ، تحرضهم ، ليمعنوا فى قسوتهم . . وتسمع مارى بهذا كله ، وهى لم تر قط هارييت ، فتتنهد قائلة : « يا لها من امرأة فظيعة ! . . »

وفى يوم من نوفمبر شعرت هارييت بآلام ، وتوهمت أنها مريضة جداً . . فبعثت إلى شللى ليلا ، فهرول إليها . فلم يكد

يبدى اهتمامه بها ، وحدبه عليها ، حتى ذابت حناناً . . . لكنه
دفعها عنه بحزم رفيق . .

وفى آخر نوفمبر وضعت ولداً ابن ثمانية أشهر . . ولم يؤد
مولده إلى مصالحة أو وفاق . وكان شللى يشكّ فى أن الولد ولده !

أما مع مارى ، فبالرغم مما هما فيه من شدائد وخطوب ،
فقد كانا سعيدين يعدان الحياة فرصة ، أو جامعة يبحثان فيها
ويتعلمان ، وكانت تصحبه فى زياراته للمحامين والمحضرين . .
وإذا ما راح على شاطىء النهر يلهو بحشد أسطول من الورق
تجلس هى إلى جانبه ، وتبنى له السفن . وأخذت نفسها ،
تحت إشرافه ، بدراسة اللاتينية واليونانية . وكانت أوفر ثقافة
من هارييت ، فلم تر فى هذه الدراسات سبباً للضجر أو
السآمة ، بل رأتها مضاعفة لمسراتها ، فإن القبلة المتبادلة بين
شخصين مثقفين ثقافة أدبية مشتركة تكون أحرّ وأحلى

كانت الغيمة الوحيدة فى سمائهما هى أختها « جين » التى
رأت أن اسمها « جين » قبيح ، فاتخذت لنفسها اسم « كلير » !
وكانت فتاة لامعة ، جميلة ، ولكنها عصبية دقيقة الشعور سريعة
التأثر . ولم يكن أشد خطراً على أعصابها من العيش المتصل المقيم
مع شاب وشابة عاشقين . وهى تحمل لشللى إعجاباً قوياً حاراً ،
وتبديه بجلاء أكثر مما يحسن . . وكانت مارى تشكو من ذلك ،

ولم ير شللى فى هذه العاطفة ما لا يجوز أو ما لا يليق !

وكانت مارى تنتظر ولداً فلزمت البيت، وساق شللى معه «كلير» إلى المحامين والمحضرين، وإلى شاطئ النهر ، ورجا منها أن تسهر معه الليل الطويل . وحدثها عن : هارييت ، وعن مس هتشنر «شقيقة روحه ! » ، وعن أخواته . . .

وكان يحب : البوح ، والإفاضة ، والتحليل الفكرى ! وبدت له الصراحة الخالصة التامة أسهل وأيسر مع كلير التى لم تكن خليلته . ولم تستطع مارى على هذا كله صبراً ، فلم تخف فروغ صبرها ، فانكمشت كلير من عتاب أختها ، وتمرمرت ، ولزمت الصمت الكئيب . .

وفى المساء ، آوت مارى إلى فراشها . فحاول شللى أن يهدئ من ثائرة كلير ، وأن يسرّى عنها . فأخذ فى رقة وأناة يفسر لها العواطف المتضاربة فى حزبهم الصغير . وكان من اللطف والعطف بحيث اقتنعت ورضيت ، ولما لحق بمارى أعاد على مسمعها ما كان من حديث . وسمعا فوق غرفتهما كلير تمشى وتتكلم فى منامها . . ثم لم تلبث أن نزلت . فقد كانت أعصابها من التوتر بحيث لم تستطع البقاء وحدها . فأخذتها مارى فى سريرها ، وصعد شللى للنوم فى الغرفة العليا

وتكرر هذا الفصل مراراً . . .

وأصابت عدوى الأعصاب المتوترة شللى . ففى ذات ليلة ، بعد حديث عن الأشباح وظهور الأرواح هزيعاً من الليل ، انتهى بهم الأمر جميعاً إلى الخوف والرعب !

* * *

كان حكم مارى على هج قاسياً . فهى تعده ، على خفة روحه ، يخطئه الجد فى نظرته إلى الأمور . وكانت محقة فى ذلك لأن هج قد لبس قباء المحافظين من أهل وطنه ، وصار نصيراً للتقاليد . وقال مرة لشللى : إنه يرى مارى حسناء وافرة الذكاء ، فنقل شللى رأيه هذا إلى مارى ، فلما زارهم على أثر ذلك بدأت مارى تستلطفه . . واندمج فى جو هذا البيت مرة أخرى ، يترجم ويطالع مع مارى وكلير . ويصحبهما إلى صانعة القبعات . . لأنهما كانتا أيضاً تذهبان إليها مثل هارييت المسكينة ، ولكن بروح أخرى . . فالقبعات عند مارى لازمة متواضعة ، أما عند هارييت فكانت هواية وهياماً !

— ٢١ —

حملت خادم « البيت المفروش » خطاباً من سيدة تنتظر على الرصيف المقابل . وكان الخطاب من فانى ، ينذر شللى بأن دائنيه يعدون العدة للقبض عليه ، فنزل إليها شللى وكلير مهرولين ،

فما إن رأتهما حتى ولت هاربة . ولكن تلميذ « أيتون » عدّاء سريع ، فلم يلبث أن لحق بها . فأخبرته بأن المحضرين يبحثون عنه ، وأن ناشره أعطاهم عنوانه ، وأن جودوين لن يحرك ساكناً لإنقاذه !

ولما لم يكن معه مال فليس أمامه إلا الاختفاء . فانتقل إلى مسكن آخر ، بينما تظل مارى وكلير حيث هما لتضليل العدو ! وضرب الفراق بين العاشقين . . وبدت لهما هذه الفرقة حرقة . فكانا يتواعدان على اللقيا فى الحانات أو الحانات النائية ، يتبادلان بعض القبل خلسة ، ثم يفترقان خشية أن يكون هناك من يقتفى أثر الحبيبة . .

وفى يناير ١٨١٥ مات الشيخ الهرم السير بسيش شللى ، فى الثالثة والثمانين . . فأصبح مستر تيموثى بدوره باروناً ، وصار شللى وارثه المباشر . فسافر إلى بيت أبيه ، وبصحبته كلير ، فتركها فى القرية ، وقصد وحده قصر فيلد بلاس . وكان السير تيموثى منتفخاً من كبرياء لقبه الجديد ، وهو أشد مما كان استنكافاً من أن يكون له مثل هذا الولد ، فأبلغه بواسطة الخادم أنه يرفض استقباله . فجلس على السلم ، وجعل يقرأ أشعار « ملتون » فى انتظار الأخبار . . وما لبث الطبيب أن خرج ، وقال له إن والده كان فى حالة غضب شديد ، ثم خرج كذلك ابن

عمه « سيدنى شللى » للسلام عليه خفية و إحاطته بتفاصيل الوصية

وكانت وصية خارقة للعادة . فقد كان السير بسيش شللى لا يدور بخلده غير فكرة واحدة ثابتة ، هى تكوين ثروة هائلة يتوارثها الخلف عن السلف . وكان ذلك يقضى بأن يزيد فى حبس الأملاك ووقفها قدر طاقته . فترك ٢٤٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى ، منها ٨٠,٠٠٠ جنيه تمثل الوقف الذى يعود إلى برسى حتما عند موت والده . وإذا قبل برسى شللى امتداد الوقف كان له حق الانتفاع بريع الثروة كلها . . وإذا لم يقبل فإنه لا يرث بعد موت أبيه السير تيموثى إلا ٨٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى فقط ، لا سبيل إلى حرمانه منها بأى حال من الأحوال

فعاد شللى إلى لندن وقصد محاميه ليناقشه فيها . وقدّر استحالة قبوله امتداد الوقف ، لأنه يأبى تشريعاً شاذاً كهذا يجعل الثروة بمنزلة رب من الأرباب تُفرض عبادته وتقديسه ! وكذلك يأبى حيازة مثل هذه الثروة الهائلة . أما ما كان يتمناه فهو أن يحصل فى الحال على دخل كاف للعيش حسب مزاجه ، وعلى مبلغ صغير يكفى لتسديد ديونه . فأرسل اقتراحاً إلى أبيه : بأنه مستعد لأن يبيعه حقوقه نظير دخل عاجل . وراق هذا الاقتراح السير تيموثى شللى ، إذ كان قد فقد كل أمل فى رد برسى عن غيه ، ولم يعد يفكر إلا فى ولده الثانى . . غير أن

رجال القانون لم يفصلوا فى شرعية تحقيق هذه الرغبة المشتركة بين الوالد والولد ، لكنهم أجازوا فقط أن يبيع شللى إلى أبيه جانباً من الميراث ، نظير دخل سنوى قدره ألف جنيه إنجليزى ، ويأخذ بادئاً مبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات أو أربعة آلاف نقداً لسداد ديونه . ولم يكن هذا بالنسبة لشللى الثروة الطائلة . ولكنه كان على كل حال نهاية الضيق والبأساء

واتجه فكره ، أول ما اتجه ، إلى ربط معاش لهارييت . فوعدها بمئتى جنيه سنوياً ، إذا أضيفت إلى تلك التى يعطيها إياها أبوها وستبروك جعلتها فى مأمن من كل حاجة . ثم عمل على دفع ديون جودوين ، ورصد لذلك دخل عامه الأول كله !

بيد أن « الصديق الموقر » رأى أن هبة الألف جنيه هى دون ما كان ينتظره بكثير ، بكثير . . وأنه ليس أسهل من الاستدانة على ميراث أصبح الآن دانياً . . وقد تميز شللى من الغيظ ، وتلظى حنقاً . . ولكنه تمالك ، وكتب الى جودوين يعبر عن دهشته من أن يرى والد مارى أنه من الطبيعى الكتابة إلى مغتصب ابنته سائلا إياه مالا ، ويأبى فى الوقت نفسه وصل العلاقات مع هذه البنت نفسها ! فأجاب جودوين أنه لهذا ، أى بسبب استدانته من مغتصب ابنته ، لا يستطيع أن يفتح لها أبواب بيته ، فهو لن يجازف بأن يتقول عليه العالم أنه قابض على

شرف ابنته ليدفع ديونه . ورد جودوين « شيكاً » مرسلا من
شللى باسمه ، موجهاً نظره إلى أن اسمىْ « شللى » و « جودوين »
لا يليق أن يظهرا معا على شيك واحد ! . . وعلى شللى أن يبعث
بالشيك باسم مستر « فلان » أو « علان » ، وعندئذ ، وعندئذ
فقط ، يرضى جودوين بتحويله إلى « جودوين » ! . .

وبعد رسائل عدة تبادلاها حول وصل العلاقات ، وبعد عناد
طويل من جودوين ، وتهافت شديد منه على مال شللى ،
واشمئزاز شللى لأجل هذا من الجنس البشرى كله ، كتب شللى
إلى جودوين : « سنقف صلاتنا ، من الآن فصاعداً ، عند
حد الأعمال والأشغال . وإنى أوافق على ما تراه من ضرورة
الاقتراض على معاشى السنوى . وإنى أرى جلياً إلى أى حد
تلزمك حالا سلفيات من المال لسداد حاجاتك . وسأبذل كل
ما فى وسعى لأحصل لك عليها . . . »

وهذا من شللى ، هذا الاحتقار فى برود ، وهذا الإحسان
فى صدود ، ما كانا ليوهنا من عزم المقترض على الاقتراض ،
ومد الأكفّ وتصعير الخدود ! . .

وكذلك كان جودوين ! . . .

- ٢٢ -

وضعت مارى طفلا لم يتم حمله ، فقال الطبيب : إنه لن يعيش. وظل شللى ساهراً، مقسّما فؤاده بين المهد وسرير النفساء، مؤتنساً فى سهره بصحبة المؤرخ اللاتينى « تيت ليف » ، أو الفيلسوف « سنيكا » . . من حكماء الزمن الغابر ! . .

وحملت « فانى » صندوقاً خشبياً لملابس الطفل ، هدية من مسز جودوين الغريبة الأطوار . ولكن زوجها الفيلسوف العَجِرْ قد ظل صلباً لا تلين له قناة . وجاء هج فأنزل السكينة على قلب مارى بحديثه اللاذع الفكه !

ونما الطفل برغم النبوءة ، وعاش شهراً .. فبدأت مارى تطمئن.. ولكنها استيقظت ذات صباح ، فوجدته ميتاً !

واستمر شللى وكلير يجوّلان لندن معاً ، ومارى باقية فى البيت ، تشتغل بالإبرة ، وتفكر فى طفلها الصغير ، الذى جعلها أماً ، ثم حرمها الأمومة . . وفى الشارع يسمع ضجيج الجماهير وصياحها . إذ كان الوقت وقت اضطرابات وشغب . فقد عاد نابليون من جزيرة إلبا ، وجاءت تهديدات بالحرب من جانب فرنسا . . ومارى كأن على عينيها سحابة من الدموع !

وكانت تغار من كلير . واعترفت لشللى بغيرتها . والغيرة عنده

عاطفة خسيسة ، تنقص فى عينيه من قدر معبودته مارى . . أى شىء يمس حبه إياها إذا ما بسط حمايته على امرأة سواها ؟ . . غير أنه سلم بأن جو بيتهم الثلاثى صار خانقاً . وبحثا لكلير عن وظيفةمربية أطفال . غير أن السمعة الغريبة التى أدركتها بفرارها إلى فرنسا جعلت كل مسعى عديم الجدوى . . وهى لا تريد الذهاب ، لأنها فى حبها لشللى تنتظر التطورات بلا انزعاج . . وأخيراً قبلت ما أعد لها من النزول ببلدة « لينموث » ، عند أرملة من أصدقاء أسرة جودوين

* * *

كلير فى منفاها الريفى ، غير أنها لم تكن بالتى تقنع طويلا بالوحدة الحلوية . فبحثت عن سبب للعيش . . .

أما وهى ذكية جريئة ، وقد أدركت استحالة أخذ شللى من أختها ، أو حتى مشاركتها فيه ، فقد بحثت بجسارة عن بطل آخر لعواطفها المكبوتة !

ولم تجد أليق بها من لورد بيرون ، الرجل الشاعر الذى يعبد فى إنجلترا عبادة ويلعن لعناً ، وكانت تحفظ أشعاره ، التى طالما رددها شللى . . وكانت تعرف ما نسج حول اسمه من أساطير الرذيلة والمجون ، والفتنة الشيطانية ، والقسوة الجهنمية !

جمال الرجل ، وعظمة الاسم ، وعبقرية الكاتب ، وجرأة

أفكاره ، وفضائح غرامياته : كل هذه اجتمعت لتجعل منه البطل الكامل . وكانت له خليلات من أرقى الطبقات !

حين تزوج روى عنه أهل لندن جميعاً : أنه بعد عقد الزواج قال لعروسه وهى تصعد مركبة الزفاف : « ها أنت ذى قد صرت زوجتى ، وهذا يكفى لأن أمقتك . . ولو أنك كنت زوجة رجل سواى فلربما أحببتك ! »

وعاملها باحتقار ، فطلبت الانفصال عنه بعد عام واحد !

وراحت كلير تطارد برسائلها دون جوان فى شخص لورد بيرون ، تعرض عليه حبها ، ونفسها ، تنتحل لنفسها الأسماء ، وتتلون فى الطلب ، أو فى العرض ! ولكن دون جوان لم يرد عليها !

وهل هناك أشد عناداً من امرأة متعبة من عفتها ، زاهدة فى فضيلتها ؟ . . فظلت تهاجمه ، وتطارده !

وظل ملازماً صمته . . وأخيراً جازفت بعرض الشىء الوحيد الذى قلما يرفضه زير النساء المعتز . كتبت إليه رسالة طويلة ختمتها قائلة : « . . . فهل تراك تسمح لى بالعيش معك بضع ساعات ؟ . ثم لن أبقى لحظة بعد أمرك لى بالانصراف . . . وافعل بعد ذلك ما بدا لك ... واذهبْ ، نقل فؤادك حيث شئت من الهوى . وارفض أن ترانى .. واقس ما طابت لك القسوة .. فلن أذكر منك إلا رقة شمائلك ، ووحشية طبعك الشائقة » !

ها هو ذا دون جوان ، آخر الأمر ، قد وقع فى الفخ . . تعب من طول المطاردة ، وتقبل هزيمته من هذه الغازية . . . وكانت نفسه من قبل تهفو إلى مفارقة انجلترا والعيش فى سويسرا أو إيطاليا ، فرحب بهذه الغرامية المفروضة عليه فرضاً ، المغتصبة منه اغتصاباً !

— ٢٣ —

لم يكن دون جوان هذا يتوقع أن يلقى الاضطهاد الطويل ، من « صيده الهزيل » . فقد قررت كلير : أن تتبعه إلى سويسرا . وعملت على أن يرافقها شللى ومارى !

وكان شللى قد انتهى من ملحمة جديدة « قرين الوحدة » : تمثل فيها حكايته ، وما أصابه من دهره وأهله ، وعبر فى مقدمتها عن « ظمأ الشاعر للحب ، وموته لأنه لم يجد حباً . . وهو يموت راضياً ، قرير العين ، للخلاص ممن حوله من الناس : الأحياء الموتى . . أولئك الذين لا هم بالأصدقاء ، ولا بالمحبين ، ولا بالآباء ، ولا بالمواطنين الأوفياء ، ولا بالمحسنين الكرماء . . فعيشهم وموتهم سواء »

ولم يكن شللى نادماً على ما فعل ، ولكن العيش فى انجلترا أصبح عنده مر المذاق . وكانت مارى ، تشكو وحدتها وعزلتها ،

وترجو أن تجد فى البلدان الأجنبية صديقات لها ، حيث لا تُعرف حكاية هربها ومغامرتها . . وقد وضعت فى يناير ١٨١٦ ولداً ثانياً سمته « وليم » ، تيمناً بأبيها « وليم جودوين » ! . فزاد على بيتهم شخص المرضع ، وضاق البيت بنفقاته ، وتضاءل معاشه !

وكان يقال إن العيشة فى سويسرا رخيصة . . ولم تجد كلير صعوبة فى إقناعهما بذلك ! .

وفى سويسرا نزلوا بفندق إنجلترا ، فى سيشرون ، من ضواحى جنيف.. وبدا لهم هناك أن هذه المشاهد المرصعة بأمواج الشمس الحنون غاية فى الجمال . . فاستأجروا مركباً ، وراحوا يقضون أيامهم فى البحيرة ، يقرأون ، وينامون . . .

وبينا كانوا هكذا سعداء، بين الماء والسماء ، كان شايلد هارولد (١) ينزل نحوهم ، من صخور إنجلترا ، فى موكب حافل . . فهذه البلاد ثارت عليه ، فى نوبة عارضة من نوبات الفضيلة التى تصيبها وتتتابع عندها ، فهبت وطردته عن شواطئها .. طردت السيد دون جوان المتهم بالزنا بمحْرم . . وأثار رحيله أشد التطلع . . فإن المجتمع ، الذى يعاقب بقسوة أية فتنة فى الغرائز يحسد فى صميمه مرتكبيها ، ويعجب بآثميها . تزاحم صفان هائلان من المتفرجين عند مدخل الميناء . . واستعارت كثيرات

---

(١) كناية عن لورد بيرون مؤلف الديوان المعروف باسم «شايلد هارولد»

من النبيلات والنساء الراقيات ملابس وصيفاتهن وخادماتهن ليختلطن بالجماهير دون أن يستلفتن الأنظار . . وكان البحر هائجاً ، فذكر بيرون لرفقائه أن جده ، الأميرال بيرون ، كان معروفاً فى الأسطول باسم « جاك العاصفة » . . لأنه لا يحب الإبحار فى غير الزوابع والزعازع . . وكان بيرون برحيله تعساً شقياً ، فأراد أن يكون ألمه عظيماً كالإعصار . .

ونزل بيرون فندق انجلترا . . وكان جمال محياه رائعاً . وأول ما يروعك منه الزهو والذكاء . ثم شحوب بشرة كضياء القمر ، تتلألأ فى وجهه عينان نجلاوان فى زرقة قاتمة ، شعره أسود ، وحاجباه مقوسان ، وأنفه وذقنه يدلان على العزم ، وفمه يدل على الاشتهاء . . وكان عيبه الوحيد أنه يعرج ، ويقول عن نفسه إنه يظلع كما يفعل الشيطان ! .

وسر الرجلان بالتعارف . وجد بيرون فى شللى رجلا من طبقته ، استطاع رغم عسره أن يحتفظ باليسر الشائق ، وأدهشته منه ثقافته . فإن بيرون قد قرأ كل ما قرأ شللى ، لكنه لم يقرأ بكل هذا الجد الخارق للعادة . فقد أراد شللى أن يعرف ، وأراد بيرون أن يبهر . وأدرك بيرون ذلك الفرق تمام الإدراك . وكذلك أدرك أن إرادة شللى هى قوة نقية خالصة ، فى حين أنه هو نفسه يطفو على تيار شهواته ، وهوى خليلاته . .

ولم يدرك شللى هذا الإعجاب الذى يحمله له بيرون، ويُعنى بإخفائه عنه. فى حين أنه هو ما استمع النشيد الثالث من «شيلد هارولد»، حتى تأثر من التحمس له، وعجزه عن مجاراته. فقد عرف فى هذا الشعر العبقرية التى يئس من التحليق إليها

وإذا كان الشاعر فيه يخلب لبه فإن الرجل فيه يدهشه كثيراً. فقد رأى فيه سيداً «أرستقراطياً» عظيما، صريحاً، شديد الحفاوة بما يبعثه الغرور فى النفس من المسرات والآلام، تلك التى يزدريها شللى، لأنه أقل الناس غروراً..

أما بيرون فقد تحدى ما اصطلح عليه العرف والعادة.. وإذ وقفت هذه التقاليد فى طريق رغباته طرحها جانباً.. وأما ما فعله شللى بسذاجة، فقد فعله بيرون عن معرفة وجسارة، ولم يكن بيرون يحب شيئاً ويقدره كالظهور والبروز فى المجتمع! وكان زوجاً رديئاً، ومع ذلك لم يكن يحترم إلا الحب المشروع. وملء فمه الأقوال الساخرة الكافرة، وهو لا يعترف بأمر وسط بين الزواج والفجور، وإنما لعب فى انجلترا ذلك الدور الجرىء الزنيم، لأنه عجز عن امتلاك القلوب بعمل تقليدى كريم!

وشللى ينشد فى النساء ينبوعاً للحس والوحى والإلهام، ولا يبحث بيرون فيهن إلا عن سبب للراحة والخمول، والفتور عنهن.. كان شللى ملائكياً، سماوياً، يقدسهن.. وكان بيرون بشرياً،

أرضياً ، يشتهيهن ، ويحتقرهن ، وينعتهن بأفحش النعوت . .
كان يقول : « ما أفظع النساء ، لأننا لا نستطيع العيش معهن ، ولا بدونهن[١] » ! . . وكان يقول أيضاً : « إن مثلى الجميل الأعلى هو امرأة من الفطنة بحيث تفهمنى وتقدر ذكائى ، ولا تكون من الفطنة بحيث تتمنى أن تلوّح بنفسها ويعجب بها ! . »

على أن هذا لم يحل دون الصحبة الشائقة بين شللى الصوفى و « دون جوان » . وكان كلاهما يحب ركوب البحر ، فاشتركا فى شراء مركب ، يبحران به كل مساء ، مع ماری وكلير وطبيب بيرون الخاص ، وهو شاب إيطالى جميل يدعى « پوليدورى » . فيجلس بيرون وشللى صامتين ، يتبعان ببصرهما الصور الهاربة من السحب فى طيات أضواء القمر . . بينا كلير تغنى ، وصوتها الشجى يحمل الفكر ، ويحلق به فى اشتهاء ، فوق المياه المرصعة بالكواكب . .

وقام شللى وبيرون معاً بحج أدبى حول بحيرة جنيف ، التى شهدت غراميات روسو وڤولتير . . وهناك هبت عليهما رياح هوج ، كادت تقلب المركب . . وخلع بيرون ثيابه استعداداً . . أما شللى ، الذى لم يكن يعرف العوم مطلقاً ، فقد ظل ثابتاً لا يتزعزع ، وذراعاه متعانقتان على صدره . . فزادت شجاعته

---

(١) يؤثر عن الإمام على فى هذا المعنى : « النساء شر كلهن ، وشر ما فيهن : الحاجة إليهن »

هذه فى تقدير بيرون له ، وإعجابه به . . . بيد أنه غالى فى إخفاء ذلك الإعجاب عنه أكثر من ذى قبل !

ثم استأجر شللى كوخاً على شاطىء البحيرة . . وسكن بيرون « ڤيلا ديوراتى » على مقربة منهما ، لا يفرق البيتين إلا مزرعة عنب

ولم توفق كلير فى حبها . فقد حملت ، وبرم بها بيرون ، وأفهمها بخشونة أنه سئمها واجتواها

قال : « أأنا أخذتها ؟ . . خطفتها ؟ . . ليت شعرى من الذى أُخذ وخُطف فى هذه الحكاية ، إن لم يكن المسكين العزيز « أنا » ؟ ! . . . وهم يتهموننى بأنى غليظ القلب مع النساء . . والله يعلم أننى كنت ، طول عمرى ، شهيدهن ! . . ولم يحدث من عهد حرب طروادة حتى الآن أن أُخذ رجل وخُطف بعدد ما أخذت وخُطفت . . وما أنا فى هذا إلا ضحيتهن ! . . »

وناقشه شللى فى مستقبل كلير وطفلها المنتظر . . فكان زاهداً فيها تماماً لا يعنيه إلا أن يخلص منها فى أقرب وقت ، أما عن الولد فقد خطر لبيرون أن يعهد به إلى أخته أوجستا ! . . فلما رفضت كلير وعد بالعناية به عند ما يبلغ سنة من عمره ، على شريطة أن يكون فى ذلك مطلق التصرف

وأصبح من الصعب على شللى أن يبقى بجوار بيرون ،

لا لفتور ما بينهما ، وإنما لأن كلير كانت تتألم ، كما أن مارى اشمأزت من موقفه وأقواله اللاذعة

وكتب شللى إلى صديقيه « پيكوك » و « هج » ليستأجرا له فى وطنه بيتاً.. وبدأت القافلة، صوب الوطن، تسير . . .

* * *

وظل شللى يراسل بيرون ، ولم يقنط من « إنقاذ » صاحبه . وكان يمزج لهجة التقدير والإكرام للشاعر العظيم ، بالتعالى عن خلق الرجل غير القويم . . وعارض قلق بيرون المتوالى فيما يتعلق بسمعته وشهرته ، بصورة المجد الحقيقى :

« أعبثاً إذن خلق العظمة والرحمة ، وبسطهما على الناس؟. أعبثاً إذن أن يكون المرء ينبوعاً تستمد منه عقول سواه من البشر القوة والجمال ؟ . . ترى ، ماذا كانت تكون الإنسانية ، لو لم يكتب هوميروس وشكسبير آياتهما البينات ؟ ! . . لست بهذا أشير عليك بالطموح إلى المجد . فإن حوافز عملك ودوافعه يجب أن تكون أنقى وأرقى . فلا ترج أكثر من أن تعبر عن ذات أفكارك ، وتتجه بها نحو أولئك الذين يتأثرون بها ، لأنهم يستطيعون الانسجام معها ، والتفكير على مثالك . . والمجد يتبع أولئك الذين هو غير جدير بأن يقودهم . . . »

وكان لورد بيرون ، فى تلك الأثناء ، متجهاً نحو ڤنيس ،

مدينة الجندول ، الناعسة الجفون ، فقرأ هذه النصائح السامية ، فى كلال وتراخ ، وعدم اكتراث . كان يتعبه الإسراف فى التقدير ، وتزعجه المبالغة فى التوقير ! . . .

— ٢٤ —

من الفتيات الثلاث ، اللواتى كن يملأن بيت سكنر ستريت حياة وبهجة ، لم تبق إلا واحدة : « فانى إملاى » بنت مارى وولستونكرافت ، من زوجها الأول . وهى الوحيدة التى على رغم رقتها وحنانها لم تجد زوجاً ، ولا عشيقاً . . وكانت محتشمة ، متواضعة ، محافظة . . وهذه فضائل يمدحها الرجال ، ولكنهم لا يكافئونها ! . . وقد أمّلت لحظة من حياتها أن يعنى بها شللى ، وبدأت تبادله رسائل خاصة . . لكن مارى حطمت كل ما بنته من آمال !

وأنبأها جودوين أنه لم يعد يستطيع الإنفاق عليها ، وأن عليها أن تعمل لتعيش . .

وكانت تريد أن تصبح معلمة . غير أن هرب مارى وجين قد جر سوء السمعة على آنسات « سكنر ستريت » ، وصارت ناظرات المدارس يحذرن هذا اللون من التربية !

وكانت تعجب بالحياة الجنونية الخيالية التى تحياها أختاها ! .

ليتها على شاطئ بحيرة جنيف تعيش مع لورد بيرون ، الذى تتحدث عنه لندن بأسرها ! . .

« هل هو من الجمال كصورته ؟ قولوا لى ، أصوته شجى ؟ لأن للصوت تأثيره الشديد فى ؟ . . أيجىء عندكم ، بلا كلفة ؟ أريد أن أعرف : هل يلوح عليه ارتكاب ما يتهمه الوشاة به ، فى لندن ، من آثام جسام ؟ . . إنى ، حين أقرأه ، لا أعتقد أنه مخلوق إلى هذا الحد من الشناعة . فإنى إذا أحببت الشاعر تمنيت لو احترمت فيه الرجل . قولوا له إن لكم صديقة محرومة من متع الحياة ، تحب أن تقرأ أشعاره قبل نشرها . . . »

وكانت مارى وكلير وشللى يتلقون هذه الرسائل الرقيقة مشفقين : « مسكينة فانى ! . لشدّ ما بقيت على لون سكنر ستريت » ! .

وزادت عبوديتها شعور أختيها بحريتهما ، وتقديرهما لهذه الحرية . . كما أن وحدتها جعلتهما تدركان كل قيمة حبهما

ورأوا فانى خلال مرورهم بلندن . . كانت حزينة ، لا تتكلم إلا عن وحدتها ووحشتها وعدم جدواها . فما من أحد على هذه الأرض يريدها . وعند ما قالت لشللى « إلى اللقاء » ارتجف صوتها . . وأرسلت إليه فى « باث » رسائل من رسائلها الرقيقة المعتادة ، ممتزجة بشىء من العتب ، كذاك الذى يوجهه

الأحياء الموتى إلى الذين ما زالت حياتهم ملء الحياة !

وكانت لفانى خالة تدعى « إڤرينا وولستونكرافت » ، وعدت بتعيينها مربية فى مدرستها . وما عتمت أن كتبت إلى جودوين : « إن أخت مارى وكلير قد تسبب الرعب للآباء والأمهات الضيقى العقول ، من الطبقة المتوسطة »

وفى ذات صباح تلقى شللى ومارى رسالة غريبة من مدينة بريستول ، تقرئهم فيها فانى الوداع بعبارات مبهمة :

« إنى راحلة إلى مكان أرجو ألا أعود منه أبداً » . .

وسافر شللى فى الحال إلى بريستول ، ثم عاد بأنباء سيئة . فقد أخذت فانى عربة المسافرين من بريستول إلى « سوانسى » حيث نزلت فى فندق واعتكفت لساعتها فى غرفتها ، وفى اليوم التالى وجدوها ميتة ، يغطى شعرها الطويل وجهها . وعلى المنضدة زجاجة من خلاصة الأفيون ، ورسالة بدأتها :

« إن الخيرة هى فى وضع حد لوجود مخلوق كان مولده عاثراً ، وما كانت حياته بعد ذلك إلا سلسلة آلام ومتاعب للذين بذلوا من صحتهم لإطعامه . . . قد يصيبكم العلم بموتى ببعض الحزن ، لكنكم لا تلبثون أن تسعدوا بنسيان مخلوقة مرت عابرة على سطح الأرض . . . »

زلزلت أعصاب شللى ، وتضعضع ، من موت فانى المروّع .

ولمّحت مسز جودوين إلى أن الفتاة قتلت نفسها بسبب حبها الكظيم له . وعندئذ تذكر بعض علامات لتأثرها واضطرابها ، فلعله من حيث لا يدرى قد أشعل يوماً عواطفها ! . . ولعلها رصدت ، ووزنت ، وحللت ، بقلق وعناية ، أقوالا منه ، أو نظرات ، لم يقصد بها إلا اللطف البرىء . . « ما أصعب أن يدرك المرء العوامل التى تجيش بها صدور غيرنا ! . . ويا للآلام التى نسببها من حيث لا نرغب ولا ندرى ! . . ما أكثر ما يمر الإنسان إلى جانب مشاعر عميقة ، وعواطف صديقة ، وأحياناً يائسة قانطة ، دون أن يحس حتى بمجرد وجودها ! . . »

إذن ، فلا يكفى أن يكون المرء مخلصاً ، وأن تكون نياته شريفة . إننا قد نسبب من الضر والشر ، بعدم الإدراك والفهم ، مثل ما نسبب بالقسوة والظلم !

وألقت هذه الخواطر كلها بشللى فى غياهب من الكآبة لا قرار لها . . .

ولكى يسرّى عن نفسه ، ويهوّن بعض ما به ، سافر وحده ليقضى أياماً عند الناقد الأدبى الشاب « ليز هنت » ، الذى سبق أن أطري شعره وقرّظه بحماسة وفطنة . وكان هنت يسكن فى ضاحية « هامستيد » ، قرب لندن . وكانت زوجته «ماريان» امرأة بسيطة مثقفة . ووراءها ثُلة من أطفالها الفاتنين ،

يستطيع شللى أن يرتع معهم ويلعب . .

وهناك نسى فانى وجودوين !. فلما عاد وجد فى انتظاره خطابا من الناشر « هوخام » ، فتحه متطلعاً ، لأنه كان قد كلفه اقتفاء أثر هارييت ، إذ انقطعت عنه أخبارها منذ شهرين : قبضت معاشها فى مارس وفى سبتمبر ، على عنوان بيت أبيها وستبروك . ثم لم يُعرف شىء عنها منذ أكتوبر !

وكانت رسالة «هوخام» أن هارييت ماتت غريقة وانتشلت جثتها من نهر السربنتين !

فسافر شللى إلى لندن فى حالة يرثى لها . فقد تخيل ، فى رعب ، ذلك الرأس الأشقر المحيط بذلك المحيّا الوردى ، الذى طالما نظر إليه بكل ما يحمله الفؤاد من بشر والتذاذ . . تخيله وقد غطته وحول النهر ، وأدمته أمواجه ، وورّمته ، وصبغته بلون الغرقى القرمزىّ . . وضرب أخماساً لأسداس فيما يمكن أن يكون قد حملها على إيثار ميتة شنيعة كهذه ، والتخلى عن ولديها . .

وأخبره « هنت » و « هوخام » بما وقفا عليه . وكانت جريدة التيمس قد نشرت هذا الخبر (١) :

« فى يوم الثلاثاء انتشلت من « السربنتين » جثة امرأة

---

(١) إن كل كلمة ، وكل جملة ، وكل واقعة ، فى هذا الكتاب ، من أوله إلى آخره ، قد قيلت فعلا ، أو كتبت ، أو وقعت . . ومهما يبد عجيبا فهو جزء صادق من التاريخ » « ص »

ذات هيئة محترمة ، وفى حالة حمل متقدم . ووجد فى أصبعها خاتم ثمين . والمفهوم أن سوء مسلكها قد أدى بها إلى هذه الفاجعة ، فى حين كان زوجها خارج البلاد »

وكان ما يدور على الألسن ، فى حى « كوين ستريت »: أن هاربيت قطعت كل رجاء فى عودة شللى إليها . فسلكت سبيل اليائسين . . وسقطت . . فعاشت ، مع ضابط جيش . ثم اتخذت لها خليلا وضيعاً ، قيل إنه خادم ، ثم هجرها . . وأخذ منها أهلها ولديها ، وقطعوا كل صلة بها . وقيل إنها كانت حاملا ، فروعت بالفضيحة القريبة المحتومة . . فألقت بنفسها فى لجة النهر . .

وقضى شللى ليلة ليلاء ... يردد لنفسه فى مثل حالة الهذيان :

ـ « فى حالة حمل متقدم . . . » ؟ ! . . يا لها من نهاية لحياتها ! . . يا للجنون ! . . هاربيت ، زوجتى ، عاهرة ! . . هاربيت ، زوجتى ، منتحرة غريقة ، جثتها طافية ! ؟ . . .

ترى أكان مسئولا ؟

ونبذ هذا الخاطر بكل قواه :

ـ لقد عملت ما كان علىّ عمله . ولما تركتها ، لم نكن على حب . وقد وفرت عليها من وسائل العيش ما كان فوق طاقتى . ولم أقس فى معاملتها . . إنهم أولئك « الوستبروك » الشنعاء ! . .

أكان ينبغى لى أن أضحى بحياتى وفكرى لامرأة غير وفية لى !

فأجاب عقله : « كلا » . وأجاب صاحباه هج وپيكوك ، اللذان أحاطا به إشفاقاً ورفقاً : « كلا » . . فتضرّع إليهما أن يعيدا ذلك ويكرّراه على مسمعه ، لأنه يلمح ، من ثنايا برق خلّب ، واجباً خفياً فوق طاقة البشر ، وقد أخلّ به ..

إيه ، أيها الرأس الصغير ، يا ذا الشعر الذهبى ، والمحيا الصبى ، لتلك الغريقة الآن . . هارييت . . .

وعند الصباح كتب رسالة رقيقة إلى مارى يسألها أن تكون أماً لطفليه المسكينين : «إيـّانتا» و «شارل» .. ولكن محاميه أنذره بأن آل وستبروك يمانعون فى حضانته لهما ، بحجة أن آراءه الدينية ، وعيشة الخنا التى يحياها ، كليهما يجعله غير جدير بتربيتهما

— ٢٥ —

أنى لحفلة الزواج ، دينياً كان الزواج أم مدنياً ، أن تزيد فى هناء حبيبين ، متفانيين ؟.. ولكن جودوين كان سروره لا حد له إذ علم بأن بنته ستصبح «امرأة شريفة : اللادى شللى» ..

وبذلك أتم جودوين على نفسه احتقار شللى تلميذه السابق ومريده الآبق !

وكانت خمسة عشر يوماً قد مضت على انتشال جثة مسز

شللى من نهر السربنتين عند ما عقد قران مارى وپرسى على يد قسيس فى كنيسة سانت ميلورد، بحضور جودوين يهش ويبش، ومسز جودوين تتكلف البشر ، وتلوّح بالظفر !. ويوقعان ، كلاهما ، شاهدين على العقد ! . وفى المساء اجتمع الشمل للعشاء من جديد فى سكنر ستريت . وكان الحفل العائلى تخيم عليه الكآبة . ففى قاعة الطعام الصغيرة هذه طالما عاشت « فانى » وطالما تعشت « هارييت » . كان شبحا الفتاتين المنتحرتين ينغصان هناء المحتفلين !

وأبى القضاء عليه أن يسلمه ولديه شارل وإيانتا بسبب أفكاره الكافرة ومبادئه الخطرة . وكذلك انتزعهما من أسرة جدهما جودوين ، وعهد بهما إلى الدكتور هيوم

* * *

اشترى شللى بيتاً فى « مارلاو » . . وأنشئت فيه مكتبة كبيرة ، ووضعت تماثيل لڤينوس إلهة الجمال وأبولو إله الشعر . . وكانت الحديقة واسعة ، تلعب فيها مع وليم وكلارا شللى : « آلبا » بنت كلير من بيرون

وكان ما أصاب شللى أخيراً من ويلات قد خط على تقاطيعه . . فزاد جسمه ضموراً ، وأعصابه اهتياجاً ، وظهره انحناء . وزاد بالحياة تشاؤماً وتذمراً . وكان يفكر فى وضع

تاريخ ثورة مثالية شعراً ، ثورة لا تسيل فيها الدماء ، ولا تتراكم الأشلاء . . وإنما ثورة من صنيعة محبين . . فتجربته الخاصة قد دلته على أن حب المرأة ، وحده ، هو الذى يمكن أن يوحى برسالة عظيمة . . .

وقضى الصيف كله فى نظم القصيد . . يبحث عن صور الحب فى حبيبته مارى ، وفى جزر نهر « التاميز » الصغيرة ، وفى لوحات السماء المتجددة سحباً قاتمة ، وسحباً هاربة ، وصوراً صغيرة . . ثم صفاء وبهاء . .

واضطر إلى العودة إلى لندن ، عند ما عزت الدراهم ، وكان مكلفاً بإطعام أفواه كثيرة : مارى وولديها ، وكلير وبنتها . . وأسرة جودوين . . وكان يمد بمعونته كثيراً من أصدقائه ومعارفه أمثال ليزهنت وأسرته وپيكوك وشارل كليرمون . . وكان لذلك يستدين من المرابين ! . وكانت مارى ترغب أن يبيع شللى بيت « مارلاو » الذى تعجل شراءه . . كانت تراه يشكو فيه من البرد ، وتتمنى له مناخاً أطيب وأدفأ ، كمناخ إيطاليا مثلا . . فكتبت إليه فى لندن تحبذ سكنى بيت صغير على شاطىء البحر يتمكنان فيه من ضغط المصروفات

وكان من أسباب شكوى مارى وجود « آلبا » بالبيت . فقد قالوا للجيران عنها إنها بنت سيدة تعيش فى لندن بعثت

بها إليهم ، لتتحسن فى الريف صحتها . . ولكن الناس جميعاً لم يلبثوا أن تبينوا من تصرفات كلير مظهر الأمومة . . ونسب بعض أهل الخير البنت إلى شللى ، باعتباره أباها ! . . فكادت الاتهامات القديمة تحوم حولهم !. وتنغص عيش مارى ، مما جعلها تتمنى الرحيل إلى إيطاليا ، حتى تحمل البنت إلى أبيها اللورد بيرون . . .

وكانت أمنية شللى أيضاً أن يرحل . فروابط الأسرة ، والصداقة ، والأشغال ، قد ضربت من حوله جدراناً عالية اختنق منها . فخيل إليه أن فراره من انجلترا ، حيث فقد حقوقه المدنية بحكم كبير قضاتها ، سيجعله ، مرة أخرى ، روحاً حراً محلقاً فى الهواء ، طليقاً فى الأجواء . . وأن حياته فى بلاد أجنبية ستكون صفحة بيضاء من غير سوء ، يستطيع أن يؤلف فيها كياناً جديداً ، كما ينظم قصيدة عصماء . .

ولما تقرر السفر طلبت مارى تعميد الأطفال فى الكنيسة . فقد رأت أن الأولى لهم : بداية حياتهم ، فى مستهلها ، بمراعاة العُرف المتبع ، وما اصطلح عليه المجتمع . . فوافق شللى على ذلك . .

وفى اليوم نفسه عمّدت كذلك بنت بيرون ، وأطلق عليها اسم « كلارا أللجرا Allegra » . . .

– ٢٦ –

سماء إيطاليا الصافية الأديم ، بلا سحاب . . . عادت قافلة الثلاثة تسير نحو أرض النسيان ، والشمس والغفران . . لم يؤثر على سيرها السريع أنها ، فى هذه المرة ، مثقلة : بالأطفال ، ومربيات الأطفال . . حتى وصلوا إلى ميلانو . فألقوا عصا التسيار فى انتظار أخبار بيرون ، وكان شللى قد كتب إليـــه يعلنه بوصول ابنته . فجاء رد دون چوان : أنه لا يريد أن يرى كلير ، أما صغيرته ، فهو على استعداد لتولى أمر تربيتها ، بشرطه الذى لا يتحول عنه : أن يكون فى ذلك السيد المطلق

وأشار شللى على كلير بأن تعدل عن طلب أى مساعدة من بيرون ، بدلا من أن تعهد إليه أمر الطفلة . بيد أن كلير كانت متكبرة ، تريد لبنتها مزايا لا يستهان بها ، وكانت شديدة الثقة فى المربية السويسرية « إليز » التى تولت الصغيرة ، فقررت أن تبعث بهما معاً إلى ڤنيس . وبرغم اعتراضات شللى الرقيقة سُلمت أللجرا إلى أبيها

* * *

ولكن بيرون لم يحتفظ بالطفلة عنده إلا بضعة أسابيع . ثم عهد بها إلى مسز هوبنر ، زوجة القنصل الإنجليزى فى ڤنيس .

غير أن كلير بدأت تقرع سن الندم ، ورأى شللى أن يصحبها إلى فنيس . وقصدا خفية بيت هوبنر ، حتى لا يتضايق بيرون ويسخط ، فاستقبلهما القنصل وزوجه برقة ودماثة . وبعثت زوجته فى طلب المربية والطفلة . وكانت أللجرا قد نمت ، ولكنها شحبت ، وفقدت حيويتها السابقة ، وإن كانت ما زالت آية جمال . .

وجرى الحديث طويلا عن بيرون . فإنه ، بعد يومين من وصوله ، قد حصل على : جندول : وخليلة ، هى «ماريانا سيجاتى» ، زوجة تاجر أقمشة ، أجّر للشاعر الكريم فى بيته غرفاً مفروشة . وكان لذلك خطره ، وكان له ما بعده . . ولكن تجارة الأقمشة لم تكن رائجة ! . . وكانت المرأة فى الثانية والعشرين ، ذات عينين سوداوين مدهشتين ، وصوت شجى رخيم ! .. أما تاجر البندقية ، فقد كان يرى « الدوقيات » تسيل من بين أصابع اللورد . . وكانت أخلاق المدينة الشهيرة تسمح ، على الأقل ، بعشيق واحد ! . .

روت هوبنر ، المرأة الرقيقة ، ذات العينين الذكيتين ، هذه الحكاية ، بالحسرة والاستطابة اللتين تمزج بهما النساء العفيفات حديثهن عادة عن الرذيلة . . وروى زوجها متحرّزاً أن أهل البندقية يتذاكرون أن السيد الإنجليزى لم يكتف بملهمة

واحدة للشعر ، فاكترى فى الخفاء ڤيلا حشد فيها منهن تسعاً ! . .
وتحدث بذلك الركبان ! . . والناس ينظرون ويعجبون ، فى حفلات الكرنڤال ، بالنساء المقنعات المتنكرات ، يتعلقن ببيرون ، ويتصيدن أنفسهن له ! . .

وقصد شللى لزيارة بيرون فى قصره ، فاستقبله بحرارة . . ولعل شللى كان الرجل الوحيد فى الدنيا الذى يرضى بيرون بالتحدث إليه بجد ، حديث الند للند ، وقدّر شواغل كلير ، وإن اعتذر بأنه لا يستطيع التخلى عن « أللاجرا » ، وإلا زاد البندقيون ، على اتهامهم إياه بأنه هوائى ، تهمة الزهد فى ابنته الطفلة . . على أنه سيفكر فى الأمر ملياً ، ويجد سبيلا للتوفيق . . ثم اقترح على شللى ركوب الخيل فى نزهة إلى « الليدو » . .

وراقت لشللى هذه الرمال ، ترمح فيها الجياد ، فى وسط الأمواج

ونظر بيرون إلى البندقية ، على ضوء الشفق القانى ، وقد صارت ورداً ورماداً . . وقال :

— إننا سنموت شباباً . . وسواء علىّ دقت الساعة اليوم أو غداً . . ولكننى أريد أن أستمتع بشبابى . .

وفى اليوم التالى عرض بيرون التنازل لشللى وكلير ، لمدة شهرين ، عن ڤيلا له قرب البندقية ، تبقى فيها كريمته أللاجرا بعد ذلك . فلم يسع شللى إلا قبول هذه الاقتراحات السخية . .

وكتب إلى مارى لتلحق به بلا تأخير

وكانت رحلة مارى مضنية . ففى «فوزينا» لاقت صعوبات بسبب جواز سفرها ، عاقتها طويلا . وكانت كلارا الصغيرة تبدل أسنانها ، وتتألم كثيراً من الحر والتعب ، وتغيير اللبن . . ووصلت مريضة إلى « ڤيلا داست Este » : ڤيلا بيرون الموعودة . وظلت تعانى الحمى خمسة عشر يوماً . وكان طبيب البلدة غبياً ، فاعتزم شللى ومارى أخذ الطفلة إلى البندقية لاستشارة طبيب أفضل منه . ولكن « كا » الصغيرة أصيبت برعشة غريبة فى الفم والعينين ، وظلت طوال السفر غائبة عن الصواب . ثم زادت الأعراض ، وجاء الطبيب إلى الفندق ، فلم يجد فى شفائها أملا . وبعد ساعة ماتت دون احتضار . . .

كانت « لافورنارينا » ، آخر محظيات بيرون ، امرأة فلاحة ، وجهها مثال الحسن البندقى القديم . وكان بيرون قد ذكرها لشللى بقوله : « سوف ترى كم هى جميلة : عينان نجلاوان سوداوان ، وجسم ثعبانى ، وشعر متموج ، يتألق تحت ضوء القمر .. امرأة تذهب فى سبيل الهوى حتى الجحيم .. إنى أحب هذا النوع من الحيوان ، وأوثره على نساء العالم جميعاً ! .. »

كانت حيواناً غريباً ، لا يسلس له قياد . متوحشة يرتاع منها الخدم ، حتى « تيتا » العملاق جندولى الشاعر . . كانت

هذه المرأة غيوراً لا تطاق ، زائفة كالشيطان، وقد أصرت على أن تستبدل بنقابها الشفاف وشالها الجميل الفساتين الحديثة ، والقبعات التى يرفرف عليها ريش النعام ، تلك التى يلقى بها بيرون إلى النار بمجرد شرائها إياها ، فتذهب وتشترى سواها . ولكنه كان يغتفر حماقاتها ، لأنها تدخل على قلبه السرور . . فهو يحب منها : حيويتها ، ولهجتها الڤينيسية ، وعنفها . كانت طبيعتها ، الفظة ، الغليظة ، البهيمية ، تريحه من الجهد العقلى . وكان شعره يتقدم بفضلها تقدماً بديعاً مطرداً ، شبيهاً بلجب البحر الخضمّ ، وصبابة المرأة العاشقة . . .

وما كانت هذه الحيوانة الجلفة ، إلاّ لتسوء شللى وزوجه ، وفى خلال بضعة الأيام التى قضوها فى البندقية وقف شللى على حياة بيرون عن كثب ، وحكم عليها حكماً صارماً . فالشاعر قد أباح لتهتكه العنان، وأطلق بحّارة جندوله يلتقطون له النساء من الشوارع . . ثم ازدرى نفسه ، فأعلن أن الإنسان مزدرى . . ولم تعد سخريته ، فى نظر شللى ، إلا قناعاً رقيقاً لحيوانيته !

— ٢٧ —

وآن لبيرون أن يستعيد الڤيلا ، ويسترد ابنته أللاجرا . وكان الجو البارد الماطر يدفع شللى نحو الجنوب . فقد كان بحاجة إلى

الدفء واللطف والصفاء . . كانت الأجواء المجهولة لديه ،
والمدن الجديدة عليه ، تخدع حزنه ، وتكشف كربه

وكان طريق روما يتعاطف بين الكروم التي احمرت أعنابها .
وفي كل خطوة يشهد المسافرون قطعاناً من ثيران بديعة بيضاء
كالحليب . فلما دخلوا المدينة حلّق صقر هائل بجناحيه فوق
رؤوسهم . . وراعهم من روما جلال الحزن المخيم على الأطلال

قف بروما ، وشاهد الأمر ، واشهد
أن للملك خالقـاً سبحانه ! . .

وقصدوا لزيارة المقبرة الإنجليزية ، فبدت لشللي أجمل وأهدأ
مقبرة رآها في حياته . كان الهواء يهمس في أوراق الأشجار
المشرفة على الأجداث ، وكان أكثرها أجداث نساء وأحداث . .
فإذا لم يكن من الموت بد ، فهنا يتمنى المرء لو ينام . . .

وبعد سفر ثلاثة أسابيع وصلوا إلى نابولي ، واستأجروا مسكناً
مشرفاً على الخليج الأزرق . . وأصبحت وحدتهم الدائمة عبئاً
ثقيلا ينوءون به . وتذكروا بلادهم ، وحنّوا إلى : وندسور ،
ومارلاو ، ولندن نفسها . فما هذه الجبال الشامخة ، وهذه السماء
الصافيـــة ، بغير صديق ؟ ! إن مسرات المجتمع هي مبدأ
الوجود ومنتهاه . . وكل هذه المناظر ، مهما تبد رائعة ، تتلاشى
من صفحة الفؤاد ، كدخان تبدده الرياح ، إذا ما فكر المرء

فى المشاهد المألوفة ، التى مهما تكن عادية ، أو تافهة ، فهى ممتزجة بألوان من المودة البهيجة . . .

وكانت مارى تشكو من أنها ، فى كل مكان ، تعدّ « الأجنبية » ! .. وكانت فى مستهل حمل جديد . وأصبحت كلير عندها لا تطاق . وقد غدر خادمها باولو بالمربية السويسرية ! فأرغمته مارى على الزواج منها ، ففعل وأخذها ورحل .. ثم أصيبت كلير بمرض شديد خفى ، مرض غريب لم تفهمه مارى . . .

فبرموا بنابولى ، وعادوا إلى روما . ولكن حرارة الربيع فى روما أتعبت وليم الصغير ، فأشار الطبيب بنقله سريعاً إلى الشمال . . فهمّوا بالسفر .. وإذا به يصاب فجأة بدوسنطاريا حادة . وظل شللى ، مدى ستين ساعة ، لا يترك يد ولده الصغير الحبيب . فقد كان يزداد به تعلقاً . وكان صبياً ذكياً ، حنوناً ، حساساً . شعره أشقر كالحرير ، وبشرته شفافة كالورد ، وعيناه زرقاوان متألقتان كعينى شللى ... وصار فى النزع ، وما زال الطبيب يأمل فى إنقاذه . فعاش ثلاثة أيام سوياً ، ثم قضى نحبه ، والشمس رأد الضحى . . .

ودفنوه فى المقبرة الإنجليزية ، التى كان أبوه عندما مر بروما قد أعجب برونقها وهدوئها . . ورأى شللى ولده يختفى تحت رقعة من الأرض ، زانها الزهر والعشب والشمس

« فانى » .. « هارييت » .. « كلارا الصغيرة » .. « وليم »

لقد خيل إليه أنه محوط بجو موبوء وبيل ، يصيب كل الذين يحبهم ، واحداً بعد واحد !

أما مارى فإنها ، فى هذه المرة ، خرّت صريعة ، وتخلت عن النضال . فأخذها شللى إلى الريف ، وأسكنها ڤيلا جميلة . . وكان قد استوى عندها كل شىء . . كانت تفكر دائماً ، وترى تينك القدمين الصغيرتين تجريان على رمال شواطئ نابولى ، وتسمع العبارات الساذجة الشائقة ، التى تعبر أجمل تعبير عن : الحب ، والعُجب ، والمرح .. وتجلس جامدة فى مكانها تحدق بعينيها فى الفضاء البعيد ذاهلة ، لا تخرج عن صمتها إلا لتزور قبر وحيدها . .

وكان شللى كذلك يشكو منها إليها ، ويألم . . ولم يصبه ما أصابها . . فقد كان — وكأنه « آرييل » : روح الهواء ، المحلّق فى سماواته — ينظم الشعر ، ويصف نضال الروح ضد المادة ، نضال الرجل الحر ضد المجتمع . وإذا ما هبت عليه أحزان مارى سأل الرياح أن تجعل منه قيثارتها ، وتنفخ فيه من روحها !

ولما آن لمارى أن تضع حملها قصدوا فلورنسا ، ليكونوا على مقربة من طبيب بارع . ولكن أبرع طبيب كان فلورنسا نفسها ، المدينة التى ليست للوحدة فيها وحشة . فيها اجتمعت أرواح

الشعراء والفنانين : يعيش المرء فيها مع « دانتى » ، ويجلس إلى جانب « ساڤونارولا » ، ويرى « جيوتو » يعبر السبيل !

فى هذا الجو الروحى استردت مارى بعض مزاج الحياة.. واختلطت فى النزل العائلى بالسكان . وجاء الوضع سهلا سريعاً . وعند ما رأت نفسها ، من جديد ، وعلى ذراعيها طفل ، تبسمت لأول مرة منذ مات وليم ، ودعت ولدها : « برسى فلورنس» ...

— ٢٨ —

بدأ شللى يشكو ألماً فى جنبه . فقد أثر فيه هواء جبال الأبنين ، الذى يهب بشدة فى الشتاء على فلورنسا . . ونصحه الطبيب بالسفر إلى بيزا . . وهناك لحق به أحد أبناء عمه : « توم مدوين » ، وهو ضابط سابق فى جيش الهند ، مفتون بالأدب، خطر له أن ينشد عشرة الأديب الوحيد فى الأسرة !.. وقد عرّف شللى بزوجين ظريفين : إدوارد وليامز وقرينته . وكان وليامز هذا ، مثل مدوين ، ضابطاً قديماً فى فرقة الفرسان بالهند ، ثم اعتزل الخدمة . وكان شاباً غاية فى الصراحة والتبسط ، شديد التطلع للمعرفة . فأعجب به شللى ومارى ، و بدت لهما زوجته الجميلة آية فى رقة الحاشية ودماثة الطبع . وكانت موسيقية بارعة . وأصبح البيتان على ود عظيم . .

وانضم لصحبتهم إيرلندى يدعى « الكونت تاف » . ويونانى هو الأمير «ماڤرو كورداتو» . وقسيس إيطالى شيطانى عجيب، يدعى الأستاذ الأب الموقر « باكيانى Pacciani »، ويطلق عليه اسم « إبليس بيزا » : أسقف بلا دين ، وبروفسور بلا كرسىّ ، ومن كبار هواة النساء واللوحات والأنتيكات ، وخبير ، ومثمن ، وسمسار عالمى يجد دائماً قصراً للإيجار ويأخذ أتعابه من المستأجر ومن المالك ، ويوصى بمعلم للغة الإيطالية يقتسم وإياه أجر الدروس ، ويهمس فى أذن السائح الإنجليزى المار بالبندقية بعنوان « المركيز » الذى يريد أن يبيع لوحة زيتية قيمة قديمة ! . . ثم هو الرجل الذى يرفع الكلفة ويصبح على ألفة وثيقة مع أى بيت بمجرد أن يضع قدمه فيه ! . .

وكان هذا القس يطلق على كل من مارى وصاحبتها اسم : « الإنجليزية الجميلة »، ويروّح عنهما بحكايات العائلات الكبيرة فى بيزا ، وأسرار سيدات الطبقة الراقية ، اللواتى هو لهن الصديق الوديع ، يستودعنه خوالج ضعفهن ، وهو لهن الأب المحترم ، يفضين إليه باعترافهن ! . . .

وأثرت إحدى روايات القس باكيانى فى شللى تأثيراً شديداً :

ـ الكونت ڤيڤيانى من كبار أعيان فلورنسا ، تزوج ، للمرة الثانية ، من امرأة تصغره بكثير . . وكان له من زوجته

الأولى فتاتان فتانتان ، غارت الكونتس الجديدة من جمالهما ، فأقنعت زوجها بإرسالهما إلى بيزا ، وإدخال كل واحدة منهما فى دير ، حتى تجدا عروسين يقبلان البناء بهما بلا مهر !

وكان البروفسور باكيانى ، الذى عرف الفتاتين منذ طفولتهما ، يتحدث بحماسة عن جمالهما الرائع ، وروحهما الجذاب ، ونوه خاصة بالكبرى التى كانت نابغية . . قال :

– يا للمسكينة « إميليا » ! .. إنها هناك ، بين جدران الدير ، كأنها عصفور فى قفص . . ترى شبابها يبلى بلا هوى ، هى التى خلقت للحب والجوى ! . . بالأمس ، نضحت بالماء زهوراً فى صومعتها ، قائلة لها : « أجل . . أنت ولدت لتنبتى ، وتورقى . . أما نحن ، المخلوقات المفكرة ، فقد جبلنا لنتحرك ، ونعمل ، لا لنذبل ، ونيبس » . . وهذا الدير ، دير سانت آن ، مكان فظيع ، ترتجف نزيلاته الآن من البرد !

هذه الرواية أيقظت فى شللى مشاعر الفارس الشارد المغوار ، فوجه ألف سؤال ، وأظهر أشد الاشمئزاز من الكونت الشيخ ، وغاية الاهتمام بالشهيدة الجميلة . . .

لم يستطع باكيانى أن يقاوم لذة الجمع بينها وبين شللى . . تلك اللذة التى تصيب بدائها بعض العجائز ، فيحبون أن يروا كل الشباب الأحبة : اثنين اثنين . . فاقترح على شللى أن

يأخذه إلى دير سانت آن . . .

لم يكن القس قد بالغ فى وصف جمالها ، فهذا شعرها الأسود معقوص فى عقدة بسيطة ، كإحدى إلهات الإغريق الملهمات .. ومحيّاها كامل الحسن ، وشحوب بشرتهـــا يزيد فى تألق عينيها النجلاوين ، السوداوين ، الممتلئتين بنعاس الاشتهاء . . ذاك الذى تفوق بعض الإيطاليات فيه الشرقيات . . .

أحس شللى أنه يحبها . ولم يكن الحب عنده اشتهاء بدنياً ، وإنما هو حاجة إلى التضحية بالنفس لمن تعجب به . . فهو دائماً يعيش فى تلك الأسطورة التى تمثل امرأة فاتنة مضطهدة يكون هو لها الفارس المنقذ . . . أسطورة كانت فى الصميم من كل مشاعر الحب التى عاناها ، والتى حملته على خطف هارييت ، لينقذها من اضطهاد أبيها . . والتى جعلته يحب مارى لأنها كانت تعسة .. مزيج من النِّسب ، التى يجهلها هو نفسه . . من الاشتهاء والشفقة . . من الخيال والرحمة . . عاطفة عرف كيف ينقيها ويرفعها ، وعرفتْ كيف تحرك وتثير كوامن قوته الخالقة للشعر ، إلى أقصى حدود الخلق والإبداع . . .

ولما دخلت إميليا قاعة الاستقبال اتجهت إلى عصفور هناك فى قفص ، وقالت :

ــ « أيها الطائر الصغير المسكين ! أنت تموت من الضنى ! ..

ولشد ما أشفق عليك ، وأرثى لك ! . لشد ما تشكو وتعانى ، إذ تسمع أترابك ، فى جماعات ، تناديك ، قبلما ترحل على بساط الريح إلى بلاد مجهولة !. . أنت مثلى ، كُتب عليك أن تقضى هنا ، فى هذا السجن ، حظك الكئيب من الأيام . . أوّاه! .. لماذا لا أستطيع إطلاق سراحك، وإخلاء سبيلك ؟! »

فرأى فيها شللى امرأة نابغية شاعرية . ولم يخف عن مارى العواطف التى خالجتـــه ، فعرفت فى هـــذا الحب مجرد تأمل فى « الجمال الأعلى » . . وكانت مع ذلك تؤثر أن لو اتجه هذا التأمل إلى تمثال ، أو لو أن شللى فعل ما فعله « دانتى » ، لم يتح له قط أن يخاطب معبودته « بياتريس » . .

على أنها صحبته فى زيارة السجينة الجميلة راضية . . .

وراح شللى يبنى حول إميليا عالماً من تلك العوالم الخيالية ، التى يحب الفرار إليها والالتجاء .. يضع لها قصيدة حب عظيمة ، على نهج أشعار دانتى ، أو أناشيد شكسبير . . يجعل فيها من إميليا : صورة ، ليست إلا آلاء لجمال السجينة ، وتمجيداً لشخصها المعبود ، الذى يختلج إحساساً ونعمى ، وراء الجدران ، اختلاج البدر وراء السحاب . . .

وبينا كان هذا العاشق الأفلاطونى يبنى عالماً بعد عالم من خيالاته ، تلقت إميليا من أبيها الكونت ڤيڤيانى رسالة يقول فيها

إنه وجد زوجاً يرضى بها بلا « دوطة » . ولم يكن فى هذا الزوج المدعو « بيوندى » ما يغرى به . . فهو يعيش فى قصر بعيد ، تكتنفه المستنقعات . لم تره قط ، وليس لها أن تراه قبل يوم الزفاف . وكانت هذه الخطبة على الطريقة التركية القديمة مما تشمئز له إميليا . . ولكن ماذا تنتظر بعد من دهرها ؟ . .

وقبلما يتم شللى قصيدته عرف أن إميليا تزوجت ! . .

— ٢٩ —

ظلت كلير ، خلال الأيام الأولى التى تلت سفرها من البندقية ، تتلقى أخبار ابنتها أللجرا بانتظام على يد هوبنر وزوجته. فعرفت أن الصغيرة تشكو البرد ، وقد أصبحت هادئة رزينة ، كما لو كانت امرأة كبيرة . وكان من رأى هوبنر نقلها من فنيس . ولكن كان من المستحيل مفاتحة أبيها فى أمر نافع ، وهو الذى يزداد استهتاراً واندفاعاً فى الدعارة !

ثم انقضت بضعة أشهر بلا خبر . فاشتد القلق بكلير ، وكتبت إلى هوبنر الرسائل تلو الرسائل دون أن تحصل على رد.. ثم علمت بحدوث انقلاب كبير فى حياة بيرون ، فقد أصابه مرض خطير ألزمه الفراش . واضطر إلى طرد الفتيات المحتالات اللواتى أضنين حاله ، ونهبن ماله .. . ولم يكد يبل حتى شهدته

ثانية محافل ڤنيس ومجتمعاتها ، وهناك لقى أجمل امرأة فى الموسم ، الكونتس الشابة تريزا جويتشيولى ، الحسناء ، الشقراء ، الشائقة ، ذات السبعة عشر ربيعاً . . التى تزوجت لعامها من كونت نبيل شاب قرناه . ومن اليوم الأول دس بيرون فى يدها ورقة كانت موعداً . وكان ذاك الذى قال بحبه إياها شاعراً عظيما ، وفتياً جميلا ، وغنياً نبيلا ... وهكذا أحاطت بها كل العوامل التى تجعل للحياة طعماً ، فاستسلمت له ، بغير تمنّع . . .

وبعد بضعة أيام أخذ الكونت جويتشيولى زوجته إلى « راڤنّا » . فتوسلت إلى بيرون أن يلحق بها .. وكان رأيه : « أن الساحرة تنسى أنها تستطيع من قبل أن تصفّر لأى رجل ، فيتبعها إلى أى مكان . . أما بعد ! . . . »

كان لايطيق فكرة الحب الهُوام ، الثابت ، الطويل المقام .. فلم يحرك ساكناً . . وكان برفضه فخوراً !

فكتبت إليه من راڤنّا بأنها مريضة جداً ، فلم يجب النداء إلى الشفقة حيث خاب النداء إلى الحب . فلبى النداء فى الحال ، وشد إليها الرحال . . إن اللبيبات من النساء ، كاللادى بيرون ، أو كلير ، يتعبنه ويضجرنه . كان يحتقرهن إلى حد لا يسأل معه خليلة له : أن تكون رفيقة فكر ، أو خدينة روح . وكذلك زوجات الخبازين ، ونساء تجار البندقية ، هن من

طبقة غير طبقته ، ومن نوع دون نوعه بكثير . . لكن الكونتس جويتشيولى ، وقد جمعت بين البلاهة الحنون ، ودماثة الأصل الكريم ، أمسكت فيه ، دون عناء كبير ، بتلابيب دون جوان ، وعلقت بحبالها جوّاب الآفاق . . وأصبح دون جوان ممرّضاً مخلصاً ، ملازما فراشها ، يناولها الدواء ، ويذوب من العطف والاشتهاء

ولما اضطرت الغالبة المغلوبة أن تغادر راڤنا إلى پولونى ، مع زوجها ، تبعها . . لقد أصبح لها « الفارس الخادم » المقطور فى ركابها !

علمت كلير بهذه الحكاية كلها ، وأن بيرون قد أمر بإحضار أللجرا إلى بلدة پولونى . وراعها أن ترى بنتها تعيش فى بيت خليلة بيرون الجديدة ، فكتبت خطاباً محتداً ، تطالب فيه باسترداد بنتها . فجاء رد بيرون بأنه لن يتركها بعد الآن لتموت من الجوع ، أو من الفاكهة الفجة . . أو لتنشأ فى بيت شالى على الاعتقاد بأن الله غير موجود . . وقال إنه ينوى أن يضعها فى دير ! . . فوجهت كلير إلى بيرون رسائل يائسة ، لاذعة ، تكاد تكون مهينة مقذعة . . فكتب إلى شللى يشكو هذا منها ، فرد شللى عاتباً عليه تأثره بهذه السفاسف من كلير التى حملها على ذلك شقاؤها ، وحرمانها من بنتها ، وأنها أولى بالعطف والصفح منها بالعقوبة والملام

وكان شللى فى حاجة إلى هذا الترفع فى وجهة النظر ،

ليتغلب على ما حوله من نكد العيش : مارى تزداد أعصابها هياجاً، يوماً بعد يوم . وجودوين يرهقه بمطالبه المالية ، حتى لقد اعتزم ألا يلبيها بعد !

ولما كانت رسائل الملام والمطالبة بالمال ، التى يوجهها جودوين إلى ابنته مارى ، تنكد عيشها ، فقد انبرى شللى ينذر هذا الفيلسوف العَجْر ، بأنه ، منذ الآن ، سيحول دون تسلم مارى رسائل أبيها ، إذا ما ظلت رسائله وقفاً على شؤون المال والسؤال !

« آرييل » ، روح الهواء ، قد بدأ يحتد ويشتد ، ويعالج شؤون الغبراء ! . .

ورحلت كلير أخيراً إلى فاورنسا ، لتشتغل فى وظيفة مربية . . وكتب إليها شللى رسائل عاطفية طويلة ، لكنها بريئة ومع ذلك لم يطلع مارى عليها ، ورجا كلير ألا تشير إليها عندما تكتب إلى أختها . وكان لهذا الإخفاء غضاضة وحزة فى نفسه ، كان الحب عنده اشتراكاً مشاعاً فى الأفكار والأفعال ، بحيث لا تكون ثمة حاجة بين المحبين إلى تفسير . . بيد أن الحياة علمته أن الكمال لا وجود له ، وأن عليه قبول ما هو دون ذلك . . وعلمته أن الحقيقة النقية ، الخالصة ، الصميمة ، هى بالنسبة لبعض النفوس سم زعاف . .

— ٣٠ —

من ر . ب . هوبنر ، إلى اللورد بيرون

فنيس — ١٦ سبتمبر ١٨٢٠

أراك مندهشاً ، وبحق ، من تغيير رأيى فى « شيلو[١] » . ولكن إذا أنا كشفت لك عن السر الشنيع ، فذلك لاعتمادى على أنك ستخفى أمر الإحاطة به عن شللى وأهله ، إكراماً لزوجته التعسة ، ورعاية لى ولزوجتى . وإنى واثق أنك عندما تعرف الحقيقة سوف تتشدد فى تصميمك النبيل على ألا تعهد بألاجرا إلى أمها . . . إنه عند ما كان آل شللى يقيمون هنا كانت كلير حاملا من شللى . ومهما يكن من الأمر فقد رحلوا إلى نابولى ، حيث دعى إليها شللى ، ذات ليلة ، ليكون إلى جوار كلير المريضة جداً . ووجدت زوجته بالطبع غرابة فى أن يدعى هو من دونها . ! وبعثوا فى طلب مولدة نفحاها بالمال لتحمل المخلوق المنكود الذى جاء إلى الدنيا إلى ملجأ اللقطاء بعد نصف ساعة من مولده . . واضطر إلى شراء صمت الطبيب كذلك بمبلغ جسيم !

وظلت مسز شللى ، خلال مرض كلير ، فى أشد القلق

---

(١) كناية أطلقها بيرون على شللى

عليها ، دون أن تستطيع الدنو منها . فقد كان هذان الفظّان يعاملانها بغلظة ، وعملت كلير ما لا يعمل لتحمل شللى على هجر زوجته المسكينة التى لم تعرف شيئاً من مغامرة نابولى . وقد عرفنا هذه الحكاية كلها من المربية السويسرية « إليز ! »

أعتقد ، بعد هذا ، أنك لا تدهش من سوء ظنى بشللى . إنى أعترف بكفايته ومواهبه . . لكنى ما كنت أتصور – كما تقول – أن يكون الرجل «مهوّساً ضد الخلق» ويكون له شرف .. وقد سمعت كلاماً عن شرف اللصوص ، لكن هذا لا يعنى إلا مصلحتهم الذاتية . . كذلك مهما يكن من مصلحة شللى الظهور بمظهر محترم ، قدر الطاقة ، مع الآراء التى يبديها علانية ، فمن الجلىّ عندى أنه لا يستوحى الشرف فى أى فعل من فعاله

من بيرون إلى هوبنر

حكاية « شيلو » صحيحة ، وإن كانت « إليز » ليست إلا « شاهد ملك » . . وهذا هو نحوهم ومجرى حياتهم . ثق أننى سأستمع إلى نصحك . .

— ٣١ —

جاء شللى إلى رافنّا ، فقد دعاه بيرون ليحدثه فى شؤون هامة.

فوجد شللى أن دون جوان فى خير حال . . فالوجه الذى كان مضنى من الإسراف فى الموبقات قد استرد نضرته . ذلك أن حكم الكونتس تريزا جويتشيولى قد أنقذه من دعارة البندقية المشينة

واستقبله بيرون بترحاب وحفاوة حارة . وقضى الصديقان الليل كله فى تلاوة أشعار بيرون ومناقشتها . وبدت لشللى أغاريد دون جوان الجديدة غاية فى الإبداع . وكان احتكاكه بعبقرية بيرون يحمله دائماً على القنوط . فقد كانت أشعاره ، بجانب أشعار بيرون الجزلة العامرة ، تبدو له سقيمة . فيقول لبيرون إنه يراه خليقاً بوضع ملحمة تكون لجيلنا هذا بمنزلة الإلياذة للإغريق . وبيرون يتظاهر باحتقار الأجيال القادمة ، وعدم الاهتمام بالشعر إلا إذا عادت عليه القصيدة بألف من الجنيهات !

ولم يكن بيرون يتحدث إلا عن أشعاره . ومنذ أول يوم ، وبكل مظاهر الود الصادق ، روى لشللى حكايات الفضائح التى تجرى بين النزلاء الإنجليز فى إيطاليا . وأطلعه شللى على الخطاب الذى يتضمن اتهامات المربية السويسرية إليز . وقال إنه لم يصدق قط شيئاً من تلك الحكاية السخيفة ! . .

اضطرم قلب شللى حزناً ، وقبض رجاءه من الخير فى الدنيا . فكتب من فوره إلى امرأته يخبرها بما تقولته عليه إليز ، ويرجوها أن تكتب إلى هوبنر رسالة تدحض فيها هذا الاتهام ، وتبرهن

على كذبه .. واستجابت مارى لرجائه ، وكتبت الرسالة المنشودة ، وأرسلتها لزوجها ، لكى يبعث بها إلى هو بنر بنفسه بعد أن يقرأها

كانت المسألة الهامة التى أراد بيرون أن يحدث شللى فى صددها هى مصير أللجرا إذا ما غادر بيرون مدينة راڤنا . فالكونتس جويتشيولى ترغب فى السفر إلى سويسرا ، وبيرون يفضل البقاء فى توسكانيا . . ورجا من شللى أن يكتب إلى الكونتس ، ليصور لها حياة فلورنسا وبيزا بطريقة جذابة ، لكى تقبل الذهاب إلى هذه أو تلك . .

وجاء خطابه من قوة التأثير بحيث فعل فى الحال ، فعله . فتقرر بغتة سفر بيرون وصاحبته إلى بيزا ، حيث يعيش شللى وزوجه . أما أللجرا فقد قبل بيرون أخذها معه ما دامت كلير ليست هناك

وذهب شللى قبل مغادرته راڤنا لرؤية الطفلة فى دير « مانيا كاڤاللو » . فوجدها زادت طولا ، ورقة ، وشحوباً . يتهدل شعرها الأسود الجميل فى حلقات على كتفيها . وبدت بين رفيقاتها كمخلوقة من جنس أرقى وأنبل . . . وحل لون من الجد الساهم محل حيويتها السابقة . وكانت الخلة البارزة فيها ، فى نظر شللى ، هى الغرور ، كانت تربيتها ناقصة ، لكنها تحفظ صلوات عديدة عن ظهر قلب ، وتتحدث عن الجنة ، وتحلم

بها ، وتعرف قائمة لا نهاية لها بأسماء القديسين . . وكانت هذه هى التربية التى تروق لبيرون . . .

— ٣٢ —

أثار قرب تشريف اللورد الشهير ، فى نوادى بيزا ، ما تثيره عادة الرحلات الملكية . واستأجرت مارى ، كما رغب إليها شللى ، أجمل بيت خال فى البلد : « قصر لانفرانكى » . وما لبثت أن بدت الطلائع ، فوصلت الكونتس جويتشيولى مع أبيها الكونت جامبا . . واستقبلهما شللى ومارى . فبهرتهما ، وطابت لهما ، هذه الحسناء الإيطالية الشابة ، الفياضة العاطفة ، الساذجة . . فقال شللى :

— إنها امرأة رائعة الجمال ، وإذا كنت أعرف شيئاً من طبيعة البشر ، ومن طبيعة صاحبى بيرون ، فلسوف تندم يوماً ، إن قريباً وإن بعيداً ، على طيشها . .

وأخيراً جاء دون جوان نفسه ، وأصبح هو المحور الاجتماعى لفريق بيزا الصغير ، وظل شللى المحور المعنوى . . فكانوا يقصدون بيرون تطلعاً وإعجاباً ، ويقصدون شللى ميلا وعطفاً . وكان شللى ينهض فى ساعة مبكرة جداً ، ويقرأ حتى الظهر : «جيته» ، أو «سبينوزا» ، أو « كالدرون» . . ثم ينطلق إلى غابة الصنوبر ، يعمل فى هدوء تام حتى المساء .

فى حين ينهض بيرون من رقاده عند الظهر ، ويتناول فطوراً خفيفاً ، ويخرج للتنزه على حصانه . ويتمرن على إطلاق غدارته . وفى المساء يزور خليلته . . ثم يعود فى الساعة الحادية عشرة ، فيعكف على العمل : يظل ينظم حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً . وعند ما يأوى إلى فراشه ، محموماً ، مهتاجاً ، ينام نوماً متقطعاً ، ويبقى فى السرير ضحوة النهار

وهرعت إليه الجالية الإنجليزية فى بيزا ، لا يتمالك أشد المتزمتين أنفسهم من الشوق إلى هذا اللورد المطبوع الأصيل ، الذى يحمل إليهم ، فى أرض أجنبية ، لمحة شائقة من معرض الخيلاء البريطانى !

كان شللى يتضجر من المجتمعات ، ولا يخفى ضجره وسآمته.. وكان عندهم روحاً محلقاً فى أجواء علوية ، تنشد كمال البشرية !.. وهو أشد إيماناً بالفداء منه بالخطيئة الأصلية ، مما لا يكاد يغتفره المجتمع اللاهى ، أو يرتاح إليه ! . .

وكانت السيدة المرحة « مسز بيكت Beckett » تقيم حفلات راقصة ، لأنها ، كما يقول بيرون ، « مبتلاة بسبع فتيات ، كلهن فى السن التى لا بد فيها لهذه الحيوانات من أن ترقص من أجل معاشها ! » . .

وتصر مارى على أن تشهد إحدى هذه الحفلات !

وتذهب يوماً إلى الكنيسة الإنجليزية ، لسماع الوعظ .. فيروعها أن القس البروتستانتى يحمل على الملحدين ، ونظره لا يفارقها ، بطريقة ظاهره . . حتى إنها ، رغم رغبتها فى الامتثال ، أبت عليها كرامتها ، كزوجة لشللى ، أن تعود كرّة أخرى !

وكانت هذه الشواغل الاجتماعية ، والحفلات الراقصة ، والمآدب الحافلة ، تلوح لشللى مبتذلة إلى حد لا يتصوره عقله . . هذه الحياة الطائشة ، بدت له ، من قبل ، إجراماً ، وهو حدَث فى سن العشرين . وها هى ذى الآن تبدو له أشد نكراً ، وأدعى إلى الاحتقار .. وكان يهرب من عتب مارى إلى دار «وليامز» حيث يحس أنه يعثر ثانية على الانسجام الروحى ، والجو الحنون ، الذى كان ألزم ما يكون له . كان إدوارد وليامز رجلا مرحاً ، كريماً ، ليس فيه من الصّغار ذرّة . أما زوجته جين فكانت رقتها ، ونعومتها ، وهدوء حركاتها ، وشجىّ صوتها ، مما ترتاح إليه النفس ، كما ترتاح إلى الحديقة الغناء . . ولو كان شللى يومئذ فى سن العشرين لما راقته بمقدار ما تروقه الآن..كان إذ ذاك يحلم بعذراء متحمسة باسلة . . بيد أنه الآن لا ينشد غير نعمة الغفران والنسيان . .

كانت تغنى . . فيحمله صوتها الجميل بعيداً عن ذكرياته الآسية ، وعيشته الزوجية الفاترة . .

وكان إدوارد وجين زوجين متحابين سعيدين ، وكان لا بد لهما من شللى ، « آرييل » الوفى ، « روح الهواء » ، الذى يخفق ويحلّق ويدور حولهما .. فلا بأس من أن يحوم روح نقى ، أسير ، حزين ، كالحارس ، حول هناء المحبين . . .

وكثيرا ما تحدثا إلى شللى عن صديق لهما يدعى « تريلاونى » ، رجل عجيب ، جوّاب بحار ، وقرصان . . بلغ من مغامراته أن قطع الأرض طولا وعرضاً ، رطباً ويابساً ، ولما يبلغ التاسعة والعشرين. وكان شديد الرغبة فى اللحاق بجماعة بيزا ، فهو يكتب إليهما : « هل ، إذا جئت ، أستطيع التعرف بشللى ؟! . . وقبل كل شىء آخر ، هل أستطيع معرفة بيرون ؟ . . أفى الإمكان الاقتراب من دون جوان ؟ . . »

فيردان عليه : « سترى شللى حتما ، لأنه من أبسط الناس . . أما بيرون ، فهذا أمر يتوقف كله عليك . . »

ولما جاء تريلاونى ورأى شللى لم يكد يصدق أن هذا الوجه النسائى الناعم هو أيضاً وجه رجل نابغ ثائر ، يقذفه الناس فى انجلترا كأنه غول مخيف ، ويجرده كبير القضاة من حقوقه الأبوية . . . كذلك أعجب شللى ، من جانبه ، بهذا الرأس المتوحش الصلب ، وهذا الشارب الأسود ، وهذا الوجه الجميل الذى يكاد يكون عربياً . . وبلغ من دهشتهما معاً أن لم يجدا

ما يقولانه . . وأرادت جين الخروج من هذا الصمت المحرج ، فسألت شللى عن الكتاب الذى بيده ، فقال :

– إنه Magico Prodigioso لكالدرون ، أترجم منه فقرات

فطلبت إليه أن يقرأ لهم ما ترجمه . . فارتاح شللى لتخلصه من واجبات التعرف التى تزعجه ، وكأنها تدور فى عالم غير حقيقى ، ففرح بالخلاص . . وطفق يترجم من الكتاب المفتوح بأسلوب عذب ، وعبارة جزلة ، بحيث لم يعد يخالج تريلاونى شك فى نبوغه وعبقريته . . وانتهت القراءة

وفى اليوم التالى أخذ شللى معه تريلاونى لزيارة بيرون . فرأى فيه تريلاونى ما يراه الناس جميعاً : كل مظاهر العبقرية . . غير أن حديث الرجل العظيم قد راعه بتفاهته . .

وخرجوا فى نزهـــة طويلة . بدت فيها براعة بيرون وشللى وتريلاونى جميعاً فى إطلاق النار على الهدف . وفى عودتهم تحدثوا فى الأدب ، ورووا الشعر . . وقال بيرون لتريلاونى :

– أعترف بأنك كنت تتوقع أن تجد فىّ : « تيمون » الحكيم الأثينى ، أو تيمورلنك الجبار التترى . وأنك دهشت إذ وجدت رجل مجتمع ، لا يعرف الجد ، ويضحك من كل شىء ثم ردد : « الدنيا حُزمة من العلف ، والناس حمير تتجاذبها » ! . .

- ٣٣ -

الملاّح الذى جاء بيزا ليعجب بالرجلين العظيمين ، سرعان ما ألفى نفسه محل إعجابهما !

وكان شللى يستشير تريلاونى فى اصطلاحات البحر ، ويرسم وإياه ، على رمال شاطىء الأرنو : المراكب وأشرعتها ، والخرط البحرية . ويقول : « لقد أخطأت استعدادى ، كان ينبغى لى أن أكون ملاحاً » . . فيرد عليه تريلاونى بقوله : « رجل لا يدخن ، ولا يحلف ، لا يمكن أن يكون ملاحاً ! » . .

وكان بيرون ، القرصان الخيالى ، يود لو تعلم من القرصان الحقيقى : عادات المهنة ، وتقاليدها . . ويبذل الجهد أمامه للظهور بمظهر الجرأة والمجازفة !

ولما أدرك تريلاونى تأثيره فى بيرون حاول الانتفاع بذلك ، ليخدم شللى . فانتهز يوماً فرصة ركوبهما الخيل معاً ، وقال له :

– أتعرف أنك تستطيع خيراً كثيراً لشللى ، بكلمة طيبة عنه ، فى أحد مؤلفاتك القادمة ، كما سبق لك أن فعلت مع كتّاب دونه كفاية ؟

– لكل مهنة أسرارها ، يا تريلاونى . فإذا نحن مدحنا كاتباً محبوباً فإنه يرد إلينا ما دفعناه من نفس العملة : يرد رأس

المال وأرباحه . أما شللى فهو استثمار سيئ ؟ ! . . من ذا الذى يقرأ شللى ؟ .. فضلا عن أنه إذا عدل عن بحوثه المعمّاة ، فيما وراء الطبيعة ، والجدل فى الإلهيات ، فلن يعود بحاجة إلىّ . .

ـ ولكن لماذا يعامله أصحابك بلا اعتبار ؟ وهو لا يقل تربية عنهم . . . ففيم نفورهم منه ؟

فابتسم بيرون ، وهز رأسه ، وهمس فى أذن تريلاونى قائلا :

ـ ليس شللى مسيحياً

ـ وأصدقاؤك ؟ وأنت ؟ . . تالله لو لقيت إبليس على مائدتك لعاملته كواحد من أصحابك ! . .

فحدجه بيرون بنظرة قاسية ، ليرى هل لكلامه وملامه خبىء ... ثم قال :

ـ كان إبليس من الملائكة ، قبل أن يأبى ويستكبر ! ...

وكان تريلاونى يستعرض هذه الحال ، مع وليامز وزوجته .. قال لهما يوماً :

ـ كأنى ببيرون يغار من شللى ، فى حين أن « مورى » ، ناشر كتب بيرون ، يستغيث بالبوليس لحماية داره من ازدحام الجماهير فى كل مرة ينشر فيها نشيداً جديداً من « شايلد هارولد » . بينا شللى المسكين لا يجد عشرة قراء . . بيرون ، له : الأصل الرفيع ، والمال الطائل ، والجمال ، والمجد ، والحب !

فقال وليامز :

ــ أجل . . لكن بيرون هو عبد رقيق لأهوائه ، بينا شللى يعرض نفسه لتيار النهر الجارف ، ويأبى على التيار أن يجرفه !.. وله فكر ، وله مبدأ . أما بيرون ، فيعز عليه أن يكون له من ذلك شيء لساعتين متواليتين . . وهو يعرف ذلك من نفسه ، ولا يغفره لها . وهذا ما تشعر به من لهجة الظفر والشماتة التى يتحدث بها عن مصائب شللى . . .

فقالت جين :

ــ إن بيرون طفل مدلل . . ولكن لا هو ولا شللى يعرف الناس.. شللى يحبهم أكثر مماينبغى.. وبيرون لا يحبهم كفاء الحب

فقال تريلاونى :

ــ إن ما يروع فى شللى : أن ليست له عند نفسه قيمة . . منذ أيام عبر لى عن أسفه لعدم معرفته العوم . . فقلت له : «جرب . . واستلق على ظهرك ، فإنك تعوم . . » . . فلم أكد أقولها حتى خلع ملابسه ، وقفز إلى الماء بلا تردد . . ولكنه هوى رأساً إلى أعماق النهر ، ولولا أننى أسرعت بانتشاله لكان من المغرقين ..

فتنهدت جين .. لأنها لم تكن تجهل أن فكرة الانتحار تخامر شللى . وهو كثيراً ما يردد : « كل الذين أحبهم قد ماتوا غرقاً »

ــ ولكنه مع ذلك لا يبدو شقياً . .

— لا ، لأنه يعيش فى أحلامه . أما فى الحياة الحقيقية ، فهل تظن أنه لا يألم من عجزه عن نشر آرائه ومؤلفاته على الناس؟ وهل تظن أنه لا يألم من تعاسة حياته الزوجية ؟ إن الموت لا شك يبدو له كاليقظة من كابوس مزعج . . . وعنده أن « الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . . »

— إنه يؤمن بحياة أخرى . . وكل الذين يصفونه بأنه ملحد لا يعرفونه . . .

وبينا كان هؤلاء التلاميذ المريدون يتحدثون عن الأستاذ الغائب ، كان هو يعمل فى غابة الصنوبر فى ضواحى بيزا . . ينسى ، فى أحلامه ، ساعة العشاء . . بل ينسى ذات وجوده . . ينظم الشعر فى تمجيد عروس روحه الجديدة : « جين » . . . الأشجار كتبه .. لا يحب وهو ينظم أن يرى أو أن يسمع أحداً.. وليس فى البيت الوحدة التى ينشدها ، فالأبواب تفتح وتغلق ، والأجراس ترن ، فتهرب من رنينها أشباح الرؤى ، وعرائس الأحلام!

— ٣٤ —

لم يصدق بيرون وعده لشللى بإحضار أللجرا إلى بيزا . . وجاءت كلير من فلورنسا لتتنسّم ريح بنتها ، وأوجست خيفة ، لما علمت ببقائها فى دير مانيا كافللو ، ذاك الذى صوره لها

أصحابها الطليان فى صورة بشعة . وحملها عذاب الأمومة على فدية تكاد تكون علوية : فكتبت إلى بيرون أنها تقبل ألا ترى أللجرا مدى حياتها ، إذا هو رضى بإدخالها مدرسة إنجليزية محترمة !. . فلم يرد عليها !

ونصح بعض الأصدقاء كلير بخطف بنتها . ولكن شللى أشار عليها بالصبر . ثم سعى لدى بيرون . . غير أن بيرون لم يكد يسمع اسم كلير حتى هز كتفيه ضيقاً بذكرها . فأخبره شللى بما سمعته كلير عن الدير وسوء حاله ! . ووصف له قلق كلير ومخاوفها

فارتسمت على وجه بيرون ابتسامة شيطانية من الرضى والارتياح. . .

ويئست كلير يأساً مريراً ، فدعاها شللى ومارى لقضاء شهور الصيف على شاطئ البحر معهما ومع وليامز وزوجه

كان شللى يمنى النفس بمتعة كبرى فى هذا التصييف. وقد كلّف وليامز صاحبهما تريلاونى ببناء سفينة فى جنوا ، بيد صديقه الكابتن روبرتس . وتسلّفا اسماً لها : « دون جوان » ، تكريماً لبيرون ، الذى أوصى أيضاً بصنع يخت كبير ، اختار له اسم « بوليفار » . . وكان شللى ووليامز يمنيان النفس بسيادة البحر الأبيض المتوسط ! . .

وكان لا بد لتحقيق هذا المشروع من استئجار بيتين على

شاطئ البحر ، وقرر وليامز وزوجه أن يقوما بجولة تفتيش نهائية ، وأخذا معهما كلير ليسلياها عن همومها

وما كادوا يغادرون بيزا حتى كتب لورد بيرون إلى شللى أن وباء التيفوس قد تفشى فى رومانا ، ولم يكن لدى راهبات الدير وسائل للوقاية ، فأصيبت « ألاجرا » بهذه الحمى ، على ما كان بها من سقم وضعف ، فماتت . . .

فذهب شللى ومارى لزيارته . وكان أشد شحوباً من ذى قبل ، وإن كان أيضاً أشد هدوءاً من مما كان عليه

وخشى شللى أن ترتكب كلير عملا عنيفاً ، إذا علمت بمصيبتها وهى على مقربة من بيرون ، فقرر أن يكتم عنها الخبر ، إلى ما بعد السفر

ولم يجد وليامز على الشاطئ كله إلا مسكناً واحداً خالياً كان من قبل ديرا قديماً من أديرة اليسوعيين ، وكان يشرف على خليج « سپزيا » البديع ، وكانوا يطلقون عليه اسم : « كازامانى » . . وكان شللى يريد إبعاد كلير ، مهما يكلفه ذلك ، فقرر استئجار البيت ، على أن تسكنه الأسرتان معاً . وكان الطابق الأرضى لا يُسكن ، إذ تغمره مياه البحر عند ارتفاعها، وكان الدور الوحيد فوق هذا مكوناً من قاعة كبيرة للطعام ، يؤدى أحد جوانبها إلى غرفة وليامز وزوجته ،

والجانب الآخر إلى غرفتين صغيرتين ، إحداهما لشللى ، والأخرى لمارى وكلير . وسادهم الهم والغم فى الليلة الأولى . وكانت الأمواج تموج تحتهم ، تناطح الصخور ، بصوت يقبض الصدور . . . ولم يكونوا جميعاً ليفكروا إلا فى مصاب كلير ... وكانت هى تعزو كآبتهم إلى ضيقهم بوجودها ، فعرضت عليهم عودتها إلى فلورنسا . فاحتجوا وعارضوا جميعاً . وهمست جين فى أذن مارى بشىء ، ثم انسحبتا معاً إلى غرفة وليامز . ولحق بهما شللى . وبعد هنيهة اتجهت كلير نحوهم ، فرأتهم فى ركن يتحدثون باهتمام . . وقطعوا حديثهم حين لمحوها . . وعندئذ قالت :

— أللجرا ماتت ؟ ! . . .

وفى اليوم التالى كتبت خطاباً فظيعاً إلى بيرون ، فأعاده إلى شللى شاكياً من خشونتها ، وأبدى استعداده للسماح لها بعمل ما تراه لدفن ابنتهما . فأجابت ، بتهكم كئيب ، بأنها من الآن فصاعداً ستترك الأمر كله له ... وأن كل ما تسأله تذكاراً لابنتها هو : خصلة شعر وصورة . فأظهر بيرون طاعة مدهشة ، وبعث إليها بصورة صغيرة جميلة جداً ، وخصلة شعر شقراء . . وعادت إلى فلورنسا ، لتعيش بين الغرباء عنها ، لا يعرفون شيئاً عن حزنها ، فلا يجددونه لها . . .

— ٣٥ —

فتن شللى ببيت البحر « كازامانى » . . أحب فيه : الوحدة الموحشة ، والغابة التى من خلفه ، والجون الصخرى الخشبى ، وقرى الصيادين ، وأكواخهم الحقيرة . .

أما مارى ، فتخبطت : حيرة ، وشقوة ، وتأففاً . . فهى حامل مرة أخرى ، تؤثر لو عاشت فى مدينة على مقربة من طبيب . وضاقت ذرعاً بوجود جين وليامز . . وثارت بينهما مشاجرات حمقاء ، بسبب الخدم والآنية والطهى ! . . وكان شللى يسرف فى الحديث بحماسة ، عن كمال جين ، ويسرف فى نظم « السريناد » من آيات الشعر ، عنها . . و . . لها . . .

وكان يرد على شكاوى امرأته بلطفه المعهود . يدللها ، ويداعبها ، برقة وحنو ، ويروّح عنها ، وكان يعلم أن حالة الحمل تفسر من ألوان تذمرها وتمرمرها الكثير . فتحملها بعطف صبور . وكان خاصة ما تعتبه عليه أن قواه العظيمة التى آتاه الله لا ينتفع بها لنفسه ، بل يسخّرها لمنفعة غيره . . كأن شخصه شخص أجنبى عنه ! . . ولا يشمل برّه وتفانيه الأقربين من صحبه ، بل الغرباء المجهولين . .

وكان يذهب كل شهر إلى ليفورن ويعود بكيس مملوء نقوداً ،

يفرغه على البلاط . ويقسم النقود بمجراف الفحم قسمين متساويين ، النصف لمارى ، لأجرة البيت وتدبيره . ثم يقسم النصف الثانى أيضاً قسمين متساويين ، أحدهما تأخذه مارى كذلك لمصروفاتها الشخصية ، والثانى لشللى . . ولكن مارى تعلم المقصود من أنه « لشللى » . . فقد كان يذهب إلى أبيها جودوين ، ولأختها كلير ، ولأسرة هنت ! . . .

كتب شللى ، بعد موت أللجرا ، إلى الكابتن روبرتس ليمحو عن المركب الذى يصنعه اسم « دون جوان » ويثبت بدله اسم : « آرييل » . صار كل ما يذكره ببيرون عنده مرذولا . لذلك ما كان أشد دهشته وغضبه عند ما جاء المركب الصغير حاملا على شراعه ، بحروف هائلة : « دون جوان » ! . . وكان ذلك من عمل بيرون ، إذ عرف بالتغيير المقصود ، فأمر الكابتن روبرتس بأن يضع ، رغم كل شىء ، طابعه الشيطانىّ على المركب الأفلاطونى . فلم يسترح شللى حتى محا عنه هذا العار ووضع عليه اسم : « آرييل » . وكان لا بد له من طنين من الرصاص حتى يتزن . . فهو هكذا ، يظل قلقاً ، لا أمان له ، يعبث به النسيم ، ويلعب الهواء . .

وأراد شللى وولیامز صاحبا « آرييل » أن يسيراه وحدهما مع غلام ملاح . وكان وليامز يدعى المعرفة بالبحر ، وكان شللى

جاهلا به كالمرأة ، وكاد خلال أول رحلة يسقط مرات عديدة من ظهر المركب ! ومع ذلك لم يكن أسعد منه ولا أهنأ يومئذ . ولما رآه تريلاونى يقود السفينة أخذ بذراع وليامز ، ونصحه بأن يبحث عن ملاح ماهر ، خبير بهذا الخليج . . .

وكان يصعب رسو « آرييل » على رصيف « كازامانى » لشدة التيار . فصنعوا زورقاً خفيفاً ليصلوا به إليه . . فأصبح الزّورق لعبة شللى الأثيرة عنده : يهيم بإطلاق نفسه، تؤرجحه الأمواج ، فى هذه المحارة الخفيفة . .

وكان يحب الإقلاع مع صحبه هؤلاء فى « آرييل » فى ضوء القمر : عند قدميه مارى جالسة ، رأسها إلى ركبتيه ، تتذكر : كيف أنها ، هكذا ، منذ عشر سنوات ، قد عبرت وإياه المانش الهائج فى جو عاصف . . . ما أكثر ما مرّ من حوادث فى هذه السنوات العشر ! . . وما أكثر ما تمخضت الحياة الخائنة بخدع ، وكشفت عن أشياء لم يكن كلاهما عندئذ يتصورها ! . . وفى آخر المركب : جين ، جالسة تغنى لحناً هندياً ، وتوقعه على القيثارة . . بينا هو يتأمل : سماء يونيه الصافية ، والسحب البيضاء تتقنّع دلالا بضوء القمر الساطع . . لم يكن يفكر . . كان يحس روحه تتحلل وتذوب تحت سنا النور النقى ، فى عطور الليل الدافئة . . إن شخصه ، الذى قُدّ

من لحم ودم ، قد تلاشى فى انجذاب روحى لذيذ ، فلم يعد إلا أثيراً ، يموج فى الفضاء بخفة . . ونسجت له عطور السماء ، وأضواء القمر ، وغناء جين ، شباكاً خفية ، يتأرجح فيها كالطفل فى مهده ، مصغياً إلى أنغام موسيقى باطنية ربانية . .

— ٣٦ —

كان شللى يرغب ، من وقت طويل ، فى دعوة صديقه الناقد هنت وأهله إلى إيطاليا ، لأن الدائنين وأعداءه السياسيين قد جعلوا عيشهم فى انجلترا مرّا . وحصل من بيرون على وعد بأن يؤسس مع هنت جريدة تختص بحق نشر جميع أعمال بيرون. وهو امتياز كاف لنجاح الجريدة وذيوعها ، ويهيىء لهنت ثروة لا يحلم بها . وذهب بيرون إلى أبعد من ذلك فى السخاء فرضى بأن ينزل لهنت عن الدور الأرضى فى قصره بمدينة بيزا ... وتعهد شللى بأن يؤثثه لهم . . .

وبعد متاعب ومصاعب وصلت قافلة هنت إلى ليفورن فى أواخر يونيه ١٨٢٢. وكان تريلاونى ينتظرهم على اليخت «بوليفار». ووصل شللى وولياماز على « آرييل » مندفعاً إلى الميناء ببراعة فائقة . وبعد مظاهرات الفرح باللقاء اتجهت القافلة ، بقيادة شللى ، نحـــو بيزا . . بينا ظل ولياماز فى ليفورن فى انتظار

صديقه شللى ليعودا فى المركب معاً

وفى صباح اليوم الثامن من يوليه وافاه شللى ومعه تريلاونى ، وقصد البنك ، واشترى مؤونة لبيتهم « كازامانى » . . ثم اتجه الأصدقاء الثلاثة صوب الميناء . وكان تريلاونى يريد أن يصحب المركب « آرييل » باليخت « بوليفار » . وأخذت السماء تربدّ شيئاً فشيئاً ، وتتلبد بالسحب ، وهبت ريح خفيفة . . وتنبأ الكابتن روبرتس بقرب هبوب العاصفة . فأكّد وليامز ، وكان يتعجل الرحيل ، أنهم سيصلون البيت فى سبع ساعات

وعند الظهر كان شللى ووليامز وبحارهما الفتى على ظهر « آرييل » ، وتريلاونى على ظهر « بوليفار » يعد عدته أيضاً للرحيل . ودنا منهم مركب حرس الميناء ، للتحقق من أوراقهم ، فسُمح لشللى ومركبه بالإبحار . أما تريلاونى فلم تكن لديه شهادة صحية ، وحاول التملص ، فهدده الضابط بالحجر الصحى خمسة عشر يوماً . فعرض على صاحبيه أن يذهب ليتمم أوراقه ويعود سريعاً ، ولكن وليامز كان لا يستقر على حال من القلق .ولم يكن لديهما وقت يضيعانه ، فقد كانت الساعة الثانية ، وكان الهواء قليلا ، فإذا جهدوا وصلوا عند دخول الليل

وأقلع « آرييل » من الميناء ، بين الثانية والثالثة ، فى نفس الوقت الذى أقلعت فيه « فلوكتان » إيطاليتان . . وألقى

تريلاونى « هلبه » غاضباً ، وطوى شراعه ، وظل يتابع ، بمنظار معظم ، مركب صاحبيه . فقال له ملاحه الجنوى :

— كان عليهم أن يقلعوا هذا الصباح ، فى الساعة الثالثة أو الرابعة ... بدلا من الثالثة مساء .. وهم يلازمون الشاطئ كثيراً ، فسوف يتمكن التيار منهم هناك !

— إن هواء الأرض لا يلبث أن يساعدهم

— ربما زاد الهواء عما يعوزهم منه . . وهذه القلاع العدة على سفينة بلا سطح « دك » ولا ملاح هى الجنون يدور بها ! . انظر إلى هذه الخطوط السوداء هناك ، والخرق القذرة العابرة فوقها ، وذاك الدخان على الماء . . . إن الشيطان يدّبر أمراً . . .

كذلك ، من وراء رصيف الميناء ، كان الكابتن روبرتس يرقب « آرييل » . فلما غاب عن بصره صعد إلى الفنار ، فرأى العاصفة توشك أن تهب وتتجه نحو المركب الصغير . . ثم لم تلبث السحب المدلهمة أن حجبته تماماً عن الأنظار !

وكان لجو الميناء وَقْدَة ، وقد انقلب خانقاً ، وصار الهواء شواظاً من نار . وساد صمت ثقيل ، يقبض الصدور ، وينقض الظهور . ونزل تريلاونى إلى كابينه ، ونام إعياء . وبعد لحظات استيقظ على دوى السلاسل . فقد كان البحارة يلقون هلباً آخر . وعمت الميناء كله حركة الهرج والمرج التى

تسبق هبوب العاصفة . وطووا القلاع ، وخفضوا الساريات ، وأخرجوا الحبال الضخمة ، ولم يبق هلب إلا تشبث بالشاطئ ، يعض عليه بأنيابه الفولاذية . وساد الظلام التام . صار البحر كتلة واحدة ، صماء قاتمة كالرصاص . الرياح تنفخ فيه ، والمطر المدرار يهطل من فوقه ، ولا ينفذ إليه . ولاذت زوارق الصيد بالشاطئ ، مسرعة ، متزاحمة ، لا تلوى على شيء . وكان يُسمع : صفير ، ونداءات ، وأوامر ، وصرخات . . ثم تغلّب على ضجة البشر ، فجأة ، هزيم الرعد ، مزق الحجب ، وزعزع الكائنات . .

وعند ما صحا الجو ، بعد بضع ساعات ، وراح تريلاونى وروبرتس يمسحان الخليج طويلاً بالمنظار المعظم ، فى قلق ، أملا فى اكتشاف مركب شللى ، لم يجدا لأى مركب أثراً . . .

— ٣٧ —

ودت مارى لو دفن شللى قرب ولده فى مقبرة روما ، تلك التى رآها جميلة جداً . . لكن اللوائح الصحية لا تسمح بنقل جثث الغرقى . فاقترح تريلاونى أن تحرق الجثتان على الشاطىء ، على طريقة الإغريق القدماء . ولما تحدد يوم لهذه الشعائر أحاط به بيرون وهنت . وقدمت السلطات التوسكانية شرذمة من الجند

مزودين بالفؤوس والمعاول، لكى ينبشوا فى الرمل على جثتى شللى ووليامز ، وكانتا قد طمرتا فى الرمل بعد أن دفع بهما البحر ، لحفظهما من المد والجزر . .

ونبش أولا على جثمان وليامز . ووقف أصحابه على الرمل المحرق ينظرون إلى الجنود يعملون ، متطلعين ، بمزيج من الحزن والرعب ، إلى ظهور الرفات البشرى . . وظهر أولا طرف منديل من الحرير الأسود ، ثم ياقة ، ثم الجسد فى حالة من الانحلال ، بحيث كانت الأعضاء تتساقط بمجرد ما يلمسها الجند . . .

فنظر بيرون إلى تلك الكتلة المختلطة من اللحم والعظم ، وقال :

— أهذه إذن رفات إنسان؟! . . كأنى بها هيكل حيوان!

وبلغ به التأثر ، فحاول أن يخفيه ، إذ عده غير جدير بالرجال . . وفى اللحظة التى رفع فيها الجنود الجمجمة قال : « قفوا لحظة ! . . حتى أرى الفكّ . . » . . ثم أضاف : « إنى أستطيع أن أعرف من الأسنان كل من خاطبته يوماً . . إنى أنظر دائماً إلى الفم ، فهو يقول ما تحاول أن تخفيه العيون . . »

وأعدت كومة كبيرة من حطب الصنوبر ، أشعل فيها تريلاونى النار . . فلم تلبث أن تأججت ، وهى تلتهم العظم واللحم ، وتلظّت بسرعة حامية ، حتى تراجع المشاهدون . .

واستعرت النار بشراهة وحشية ، ثم تألقت صافية ، لامعة ، فضية
ولما خبا قليلا أوارها اقترب منها بيرون وهنْت ، وألقيا على
هذا الفراش الجنائزىّ المتوقّد : لباناً ، وملحاً ، وخمراً . .
وقال بيرون بغتة :
– هلموا . . ولنجرب قوانا مع هذه المياه التى أغرقت
صديقينا . . ما مدى بعد مركبهما عن الشاطىء عندما غرق ؟ . .
وقفز إلى الماء عائماً . . وتبعه تريلاونى وهنت . .
ولما التفتوا وراءهم كانت محرقة الموت على الشاطئ لم تعد
إلا ذبالة تضىء وتخبو . . .
وفى اليوم التالى جاء دور شللى ، الذى كان مطموراً
قرب ڤيارجيو ، بين البحر وغابة الصنوبر
وكان الجو صحواً جميلا : رمال صفراء ، ومياه زرقاء ،
تؤلف ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، لوحة رائعة . ومن وراء
الأشجار ، تبدو قمم جبال الأبنين المتوجة بالثلوج البيضاء ، فى
السماء الموشّاة بالسحب المرمرية الهاربة ، التى طالما أعجب بها شللى
واحتشد أطفال البلد لدى هذا المشهد النادر . . ولكنهم لزموا
الصمت خاشعين . . وكان بيرون نفسه قد توزّعته الفِكَر والغموم :
– آه ! . . . أيتها الإرادة الحديد ! . . أهذا إذن كل ما
بقى من شجاعتك ، ومضائك ، وعزيمتك ؟ ! . . لقد تحديت

الآلهة . . . وها أنت ذى ! . . لا عاصم اليوم من أمر الله ! . . .

وظل الجنود يحفرون نحو ساعة ، ولا يجدون الجثة . ثم فجأة ، سُمع صوت ضربة جامدة جوفاء ، أنذرتهم بأن فأساً قد ضربت جمجمة الرأس ... فارتجف بيرون ! .. ومرت بذهنه كالبرق صورة شللى ، يوم تلك العاصفة ، على بحيرة جنيف ، عندما كانا معاً ، وقد شبك شللى ذراعيه على صدره ، ببسالة وعجز معاً ! . . فبدا لبيرون أن تينك الذراعين كانتا رمزاً صادقاً لهذه الحياة الجميلة :

– لشد ماكان الناس قساة غلاة فى الحكم عليه ظلماً وعدواناً . . فهو خير الرجال بلا استثناء ، وأقل من عرفت منهم أثرة وأنانية . . . ثم أى جنتلمان هو ! . . الرجل الكامل . . لم يعبر قط صالوناً رجل أكمل منه ! . .

كانت الجثة مغطاة بالجير الذى لم يدعها إلا فحماً . فنُثر من جديد بخور اللبان والزيت والملح على اللهب ، وصُب النبيذ مدراراً على شللى ميتاً ، أكثر مما تجرع منه حياً . .

وضاق الجو ، وتكهرب بالحرارة الهائلة . . وبعد ثلاث ساعات كان القلب ، وهو على حجم كبير غير عادى ، لم يذب بعد . . فانتشله تريلاونى من الأتون المشتعل ، مجازفاً بإحراق يده .. وكانت الجمجمة التى شجّها معول جندى قد

انفتحت ، وظل المخ يغلى فيها طويلا . . كما لو كان فى بوتقة !

فلم يعد بيرون يستطيع احتمال هذا المشهد . ففعل ما فعل بالأمس : ألقى بنفسه متجرداً إلى البحر ، وسبح حتى يخته « بوليفار » ، الذى كان راسياً فى الجون

وجمع تريلاونى بقايا العظام المنتثرة ورماد الرفات ، ووضعها فى صندوق كان قد جاء به ، مصنوع من خشب البلوط ، ومبطن بقطيفة سوداء . .

* * *

ـ أما غلمان القرية ، الذين كانوا يحدقون بكل عيونهم ويعجبون ، فقد روى بعضهم لبعض :

ـ إن هذه العظام النخرة ، إذا ما عادت إلى وطنها ، عاد الميت فوُلد من رماده ، وهبّ من رقاده ! . .

